اقرأ

فتحي أبو الفضل

حافية على الشوك

عدد ممتاز

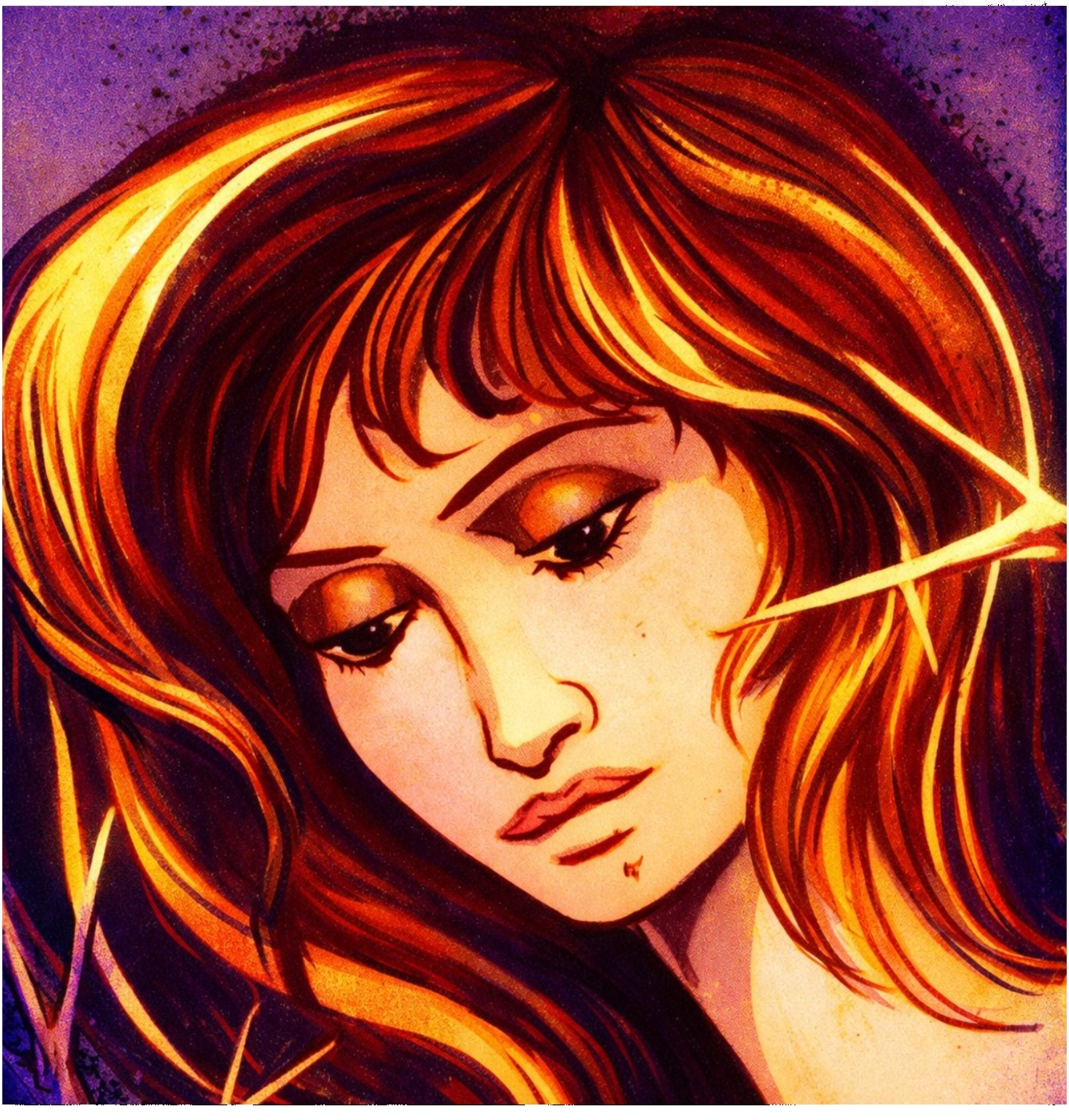

اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٤١٤] أغسطس ـ ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

فتحي أبو الفضل

حافية على الشوك

الرواية الحائزة على جائزة الدولة للرواية
عام ١٩٧٧

(الطبعة الثانية)

دار المعارف

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

إهـــداء

إلى أستاذ أجيال متعاقبة غرس فى نفوس أفرادها بعلمه وفنه وأدبه وأستاذيته شيئا اسمه « الحس الإذاعى » ، عندما يقف الواحد منهم خلف الميكرفون ليخاطب الملايين ، ومخاطبة الملايين مسئولية ثقيلة ضخمة يحزننى ويحزن كل من يقدر ثقلها وضخامتها أن يراها — أعنى هذه المسئولية — قد ذابت ، فتلاشت من وجدان ونفوس الغالبية الغالبة من العاملين فى أخطر جهاز فى أية دولة ولا أقول فى مصر وحسب .

إلى أستاذ كبير عالم بأسرار هذا العلم الذى وهبه نفسه وذاته وحياته جميعا — الإذاعة — وقد قدم كل هذا إلى أجيال متعاقبة من تلامذته — بالألوف — فى عطاء بار كريم سخى ، فلم يبخل على أيهم يوما بالمعرفة والتوجيه ..

إلى عبد الحميد الحديدى .

أول وآخر رئيس لمجلس إدارة إذاعة مصر

إليه ، ضيفاً عزيزاً غالياً على الكوكب الأعلى — الجنة — التى وعد الله بها الأخيار من عباده .

حبا ووفاء وعرفانًا ، بلا حدود .

فتحى أبو الفضل

دار الأهرام — القاهرة

تحية خاصة

إلى من قطعت رحلتها إلى أوربا ، وهى على سلم الطائرة — التى كان مقرراً أن تقلع بها من مطار القاهرة — عندما علمت بمرضى ، فهبطت أرض المطار ، ومنها إلى المستشفى حيث كنت أرقد بين الحياة والموت ، لتظل إلى جانبى أسابيع متعاقبة ، إلى أن اطمأنت إلى اجتيازى الخيط الرفيع بين الموت والحياة . .

إلى الفلاحة المصرية التى لم تنس تراب قريتها ، « الإبراهيمية » — شرقية ، وهى فى قلب كل عاصمة من عواصم الدنيا . . .

إلى الصديقة الوفية ، التى جاوز وفاؤها كل مألوف . .

إلى كريمة . .

تحية خاصة من . . « حافية على الشوك » !

فتحي

١

« أسابيع ثلاثة تنقضى اليوم على ما جرى لى من هول . .

« الأسابيع الثلاثة هذه ، عشتها بإحساس واحد لا يتغير . . إحساس من يهوى من حالق . .

« من ارتفاع شاهق ، شاهق ، شاهق يقاس بُعْده عن الأرض – فى تقديرى – بآلاف السنوات الضوئية ، فظللت أعانى – وما أزال – فظاعة هذا الإحساس المروع . . إحساس السقوط من هذا الارتفاع الشاهق ، الشاهق ، الشاهق ، وسرعة السقوط تتزايد وتتضاعف ، وتتزايد وتتضاعف لتتساوى بسرعة الصاروخ . . لا أدرى متى أرتطم بالأرض لأتخلص من هذا الفزع المخيف ، وأنا أهوى بين متاهات الفضاء اللانهائى ، وإن كنت أعلم أننى لن أصل إلى الأرض – إذا وصلت – إلا ذرات متناثرة من اللحم المحترق والعظام المتفحمة !

« حسبي أن أنتهى من عذابى هذا على أية صورة ، حتى لو كانت النهاية على هذا النحو المفجع الأليم . .

« حياة وآخرها الموت .

« وهل يعيش إنسان إلى الأبد ؟

« أوهل نموت مرتين ؟

« هى ميتة واحدة يا صفاء !

« نموت اليوم ، أوغداً ، أو بعد أعوام . .

« ونموت فجأة ، أو بعد مرض طويل أوقصير . .

« ونموت إثر حادث ، أوفى معركة ، أونتيجة جراحة أواختناق أو تسمم . .

« ونموت حرقاً فى طائرة ،أو غرقاً فى محيط ، أوشنقاً تنفيذاً لعقوبة ، أو تحت أنقاض منزل يتداعى فوق رؤوسنا . .

« تتعدد الوسائل والموت واحد ، أو كما يقولون : « تعددت الأسباب والموت واحد » . . وهو الحقيقة المؤكدة ، والنهاية المحتومة لكل كائن حى . .

« فأية غرابة فى أن أموت يا صفاء ؟ !

« أى جديد وأى بأس فى أن أموت وأنتهى ؟ »

وماتت الكلمات على شفتى عصمت ، وقد تحولت دمعتان فى عينيها الرماديتين إلى حبّتين من اللؤلؤ ، وكأنهما تأبيان الفرار منهما لتنسابا على وجنتيها اللتين أذبلهما الحزن والهم والانكسار ثلاثة أسابيع متصلة . .

كان واضحاً من شحوبها الحزين أنها لم يغمض لهما جفن حقيقة ، خلال هذه الأسابيع الثلاثة التى انقضت .

* * *

وطال الصمت بين الصديقين إلى أن قالت صفاء :

ــ عصمت . . يجب أن تبلغى النيابة .

ــ النيابة ؟ ! !

ــ إنها جهة الاختصاص .

ــ فى حياتى كلها ما وقفت مرة ، أوجلست ، أمام وكيل نيابة ، أو

ضابط شرطة . . فى حياتى كلها ، مادخلت مرة من باب يؤدى إلى حجرة تحقيق .

ــآن لك أن تدقى باب غرفة وكيل النائب العام ، لتدخلى عليه ، ولتحكي له القصة كلها ، وكاتب التحقيق يدوّن ما تنفرج عنه شفتاك ، كلمة بكلمة .

ــ يا مصيبتى ! ! . . نيابة ؟ !

قالتها عصمت فى صوت هامس تخنقه الدموع ، ولكن صديقتها صفاء أمسكت بذراعها برفق ، وهى تقول :

ــ المصيبةُ فيما جرى ياعصمت ، والعدالة يجب أن تأخذ مجراها . . والنيابة خطوتك الأولى نحو تحقيق هذه العدالة .

ــ ووالدتى ؟

ــ تذهب معك .

ــ يعنى . . أعترف لها ؟

ــ بكل شىء . . فأنت مجنىّ عليك ، لا جانية . . خالك أحمد رجل عاقل ، وهو صديق لك أكثر منه شقيقاً لوالدتك ، وهو واسع الأفق ، سليم الإدراك ، وسيقدر كل شىء عندما تدعوه والدتك ليصحبك إلى دار النيابة ، بعد أن تروى له كل شىء .

ــ هل هذا هو الحل الوحيد كما تعتقدين ؟

ــ هل لديك غيره ؟

ــ أنا لست دارية بنفسى يا صفاء . . لقد أدركت ــ خلال هذه الأسابيع الثلاثة التى انقضت ــ معنى حالة انعدام الوزن ، التى نقرأ

عنها منذ اقتحم الإنسان الفضاء .. إننى أعيش حقيقة فى حالة انعدام الوزن بصورة مستمرة .

ـ أستأذنك فى أن تتركى لى مهمة إطلاع والدتك على كل شىء .

هتفت عصمت بسرعة :

ليتك تفعلين يا صفاء !

ـ وفيمَ التمنى ؟ . أنت منى فى مكانة الأخت العزيزة الغالية ، ووالدتك فى مكانة الأم منى .. سأقوم لزيارتها وأروى لها كل شىء .. ولنتفق من الآن على أنك تعلمين أننى سأخاطبها فى هذا الشأن .. أى أن إحساسك بالحرج والخجل البالغين ، هو ما دفعك لأن تنيبينى عنك للقيام بهذه المهمة .

ـ شكراً يا صفاء .

ـ سنتوجه معاً الآن ، وسأنفرد بها قليلاً ، بينما تتشاغلين أنت فى عمل أى شىء ، إلى أن أفرغ أنا من إطلاعها على القصة ، ثم نجتمع ثلاثتنا ونتفق على الخطوة التالية !

٢

إلى جانب خالها أحمد ، جلست عصمت أمام وكيل النائب العام ، الذى فتح محضراً ليسجل أقوالها كلمة بكلمة ..

ـ اسمى عصمت مرتضى ، ابنة المرحوم أمين مرتضى المحامى .. فى الثلاثين من هذا الشهر ، أبلغ الرابعة والعشرين من عمرى .

وكان كاتب التحقيق يدوّن كل ما تقوله عصمت ، التى توقفت

قليلاً عن الحديث ، وسألت وكيل النائب العام بصوت مرتجف ، إن كان من المتيسر أن يأمر لها بكوب ماء ، فأجابها النائب من فوره :

ــ بكل تأكيد . . أطلبي ماشئت يا آنسة عصمت . . يستطيع الأستاذ أحمد كذلك أن يطلب ما يشاء .

وأمر الحاجب بإحضار قدحى قهوة مع ماء مثلوج . . واستأنفت عصمت الحديث :

ــ فى اليوم الثالث من هذا الشهر . . أذكر أنه كان يوم سبت . . .

ــ أى منذ نحو ثلاثة أسابيع .

ــ بارحت منزل أسرتى ، بشارع الدكتور محمد مصدق بالدقى ، قاصدة مستشفى « دار الشفاء » بشارع رمسيس ، لزيارة صديقة لى أجريت لها جراحة دقيقة . . .

ــ وبعد ؟ . .

ــ انتظرت إحدى سيارات « التاكسى » قرابة عشر دقائق دون جدوى . . .

ــ إنها أصبحت مشكلة .

ــ فقلت لنفسى ، أو قالت لى نفسى ، أن أمشى قليلاً لعلى أجد إحدى هذه السيارات مقبلة من أي شارع جانبي ، فأستقلها إلى وجهتى .

ــ فمشيت . .

ــ وكلما مرت بى سيارة حاولت أن أستوقفها ، ولكنى كنت أمام حالتين لا تتغيران : فالسيارة إما مشغولة براكبيها ، أو خالية ! ولكن السائق لا يقف ، وكأنه لا يرى من يستوقفه ليحمله إلى حيث يريد . .

ــ حالة محيرة بطبيعة الحال .

ـ وانقضت خمسون دقيقة . . .

ـ خمسون دقيقة ! !

ـ أرجو أن أكررها مؤكدة . . انقضت خمسون دقيقة كاملة ، وأنا أنتظر سيارة تحملنى إلى المستشفى دون جدوى ، واكتشفت أن الوقت يسرقنى ، والشمس بدأت زحفها نحو الغروب ، ولو انتظرت خمسين دقيقة أخرى ، ما وصلت المستشفى إلا والظلام قد أقبل .

ـ فكرت فى العودة إلى المنزل

ـ هذا صحيح . . ولكنى لم أكد أستدير عائدة ، حتى وقفت بالقرب منى سيارة فاخرة ، فتح قائدها بابها بهدوء ، وهو يقول لى فى صوت مهذب ، وفى لهجة أكثر تهذيباً : « الآنسة لو سمحت لى بحملها إلى حيث هى ذاهبة ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً تمنحنى إياه » !

ـ شكراً ، ولكنى . .

ـ ولكنك ماذا ؟ . . إن العثور على تاكسى فى هذه المنطقة – وفى هذا الشارع بالذات – يعتبر حدثاً لا ينقصه إلا أن ينشر فى الصحف ، ولاشك فى أنك أمضيت مالايقل عن نصف ساعة تنتظرين . .

ـ فى الحقيقة ، أمضيت خمسين دقيقة .

ـ إذن أرجو أن تمنحينى شرف حملك إلى حيث تريدين . . إننى جارك فى هذا الشارع . . ، إذا كنت من ساكنيه .

ـ إننى أسكن هذا الشارع .

ـ نحن جيران إذن . . اسمحى لى أن أقدم لك نفسى ، حتى لا تكونى على جهل بمن تركبين سيارته . . أنا « عبد الحميد لطفى » ، مزارع . .

درست الحقوق ، هذا صحيح ، ولكنى تفرغت لزراعة أرضى فى طريق الأهرام . . أزرعها كلها فاكهة بدلاً من متاعب المحاماة أو أسر الوظيفة . . تفضلى يا آنستى . . تفضلى

وترددت . . حقيقة ترددت فى بادئ الأمر وأحس هو بترددى فعاد يقول :

ــ آنستى . . إن لى شقيقات وبنات شقيقات بعضهن فى مثل سنك ، فأرجو منك ألا تجرحى أخاً أكبر أو خالاً بظنة سوء ، وبعد . . فإنك لست طفلة . . وبيتى – أعنى بيت أسرتى – يقوم على رأس هذا الشارع وسأريك إياه مشيراً إليه عندما نمر به الآن . . ربما تعرفت والدتك بوالدتى ، أو تعرفت أنت ببنات شقيقاتى وتبادلتن الزيارات جميعاً ، وأصبحت أسرتانا أسرة واحدة . .

ــ فى الحقيقة ، أنا فى عجالة فإن صديقة عزيزة لى ترقد فى مستشفى « دار الشفاء » ، وكنت أرجو زيارتها قبل أن يقبل المساء .

ــ تقولين مستشفى « دار الشفاء » ؟

ــ نعم .

ــ يعنى فى سكتى ، لأنى ذاهب إلى مصر الجديدة . . تفضلى واركبى ، أرجوك . . تفضلى .

وصعدت ، وجلست إلى جانبه . وانطلق بالسيارة فى سرعة عادية توحى بالرزانة والاتزان ، والمهارة وحسن القيادة .

وعند أول شارع الدكتور مصدق ، أشار بأصبعه إلى المبنى الكبير ، القائم على زاوية التقائه بشارع الدقى ، وهو يقول :

ـ« هنا نسكن » .

وانحرف يميناً إلى شارع الدقى . .

* * *

فى الطريق ، وبعد قليل ، قال لى :

ـ مارأيك فى الآتى ؟ . . سأتركك عند مستشفى « دار الشفاء » لزيارة صديقتك ، وأتم أنا رحلتى إلى مصر الجديدة ، وفى عودتى — بعد قضاء مهمتى هناك — سأمر لآخذك من المستشفى ، لأعود بك إلى منزل أسرتك ، فإن العثور على « تاكسى » فى شارع رمسيس ، وفى منطقة مستشفى « دار الشفاء » بالذات ، وبعد نحو ساعتين من الآن ، مسألة لا أقول شبه مستحيلة ، لأنها مستحيلة حقيقة . . ولنتفق من الآن على ساعة معينة ، أعود لك عند حلولها.

ولكنى شكرت له هذا ، معتذرة بأننى سألتقى — حتماً — ببضع صديقات يزرن صديقتنا المريضة فى المستشفى ، ومن الطبيعى أن نعود معاً .

فأجابنى بأدب مفرط :

ـ كما يتراءى لك ، مادامت راحتك فى هذا .

كان مهذباً عالى التهذيب . . مؤدباً مفرط الأدب ، يركب سيارة فاخرة ، ويرتدى ثياباً فاخرة ، ويتضوع منه عطر جذاب جميل . . « ابن ناس » ، كما يقولون . . ولم يكن شاباً نزقاً ممن يطيلون شعورهم ، ويقودون السيارات بسرعة مخيفة ، ويملأون الجو زعيقاً بآلات التنبيه ، كما هى القاعدة الآن . بالعكس ، فقد كان واضحاً أنه تعدى الثلاثين . . أستطيع أن أقول إنه فى نحو الخامسة والثلاثين ، يبدو محترماً عاقلاً

رزيناً . . وكانت عقود ياسمين نضرة تتدلى من المرآة الصغيرة المثبّتة أمامه ليرى فى صقالها الطريق خلفه . . وسقطت على ركبتى زهرة من هذه الأزهار ، فالتقطتها وقربتها من أنفى أستنشق شذاها العبق ، فنظر نحوى وهو يسألنى :

ـ أتحبين عطر الياسمين ؟

ـ أحب العطور الجميلة عموماً . . والياسمين بالذات ، أحب عطره .

أجابنى وابتسامة هادئة على وجهه ، بينما عيناه على الطريق :

ـ أنا أيضاً ضعيف جدّاً أمام العطور الجميلة ، ولا أبخل بأى مال ثمناً لقارورة عطر يعجبنى .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قال بعدها وعيناه لا تزالان على الطريق ، دون أن ينظر لى :

ـ فى مرة ، دفعت مائة وخمسين جنيهاً استرلينياً ثمناً لزجاجة عطر اشتريتها من « بيير بالمان » فى باريس .

ولا أنكر أن الرقم استثارنى ، فسألته :

ـ يا خبر ! . . مائة وخمسون جنيها ثمناً لزجاجة عطر ! ! . . لاشك فى أنه شىء رائع . . غير عادى .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لك أن تحكمى بنفسك .

وأخرج من جيبه منديلاً أبيض ناصعاً – وكنا قد اقتربنا من ميدان الجلاء – وقرب المنديل من أنفى ، وهو يقول :

شمّى لتحكمى بنفسك إن كان يساوى المائة والخمسين جنيهاً

أولا يستحقها .

وأعترف أن العطر كان شيئاً ساحراً ، لاعهد لى به ، فاستنشقته بعمق . . ثم بعمق أكثر ، فأكثر ، فأكثر ، وهو يقول لى :

ــ ما رأيك ؟

ولما حاولت أن أجيبه ، أحسست بلسانى أثقل من أن أحركه .

كل ما أذكره أن صوته كان يصل إلى مسمعى كأنه آت من مكان بعيد ، بعيد ، ومن خلال ضباب ، وهو يقول :

ــ شمّى . . شمّى بعمق . . بعمق أكثر . . أكثر . . أكثر . .

ولم أعد أدرى بشئ !

* * *

لا أدرى كم من الوقت مرّ على قبل أن أفيق من الغيبوبة ، لأجد نفسى راقدة شبه عارية ، فى فراش لا عهد لى به . .

واكتشفت على الفور فظاعة ما جرى لى . . .

صرخت . . .

قاومت ضعفى وذلى وعارى ، وتغلبت على آثار الإغماء الذى عشته نحواً من ساعة ، وقمت من مكانى لأجد هذا الشيطان جالساً على مقعد قريب من الفراش ، وهو ينظر لى ، وابتسامة ثعبان ترتسم على وجهه . . إذا استطاع الثعبان أن يبتسم !

دخلت فى ثيابى بسرعة ، واتجهت نحوه ، ونظرت له نظرة جمعت احتقار الدنيا بأسرها . . لو كان فى نظرات الاحتقار ما يقتل إنساناً ، لمات هذا الشقى ألف مرة ، وعيناى تلعنانه وتبصقان ما ضمنته قواميس

العالم بكل لغاته من كلمات الاحتقار .

ورفعت يمينى بقدر ما استطعت ، وهويت بكفى على صدغه القبيح بلطمة خيل إلى أنها ستلقيه أرضاً . . ولكنه تلقى اللطمة فى هدوء ، وابتسم لى ابتسامة صفراء ، وهو يقول :

ــ إننى لا أستحق منك هذه المعاملة الخشنة .

بصقت على وجهه وأنا أصرخ :

ــ أنت نذل . . أنت جبان . . أنت حقير . . أنت أحقر من صرصور ، وأقبح من برص ، وأقذر من خنزير . . أنت أحقر وأقبح وأقذر من كافة الحشرات والهوام التى خلقها الله فى هذا العالم ، دون أن نصل إلى حكمته من خلقها .

وبدا عليه أنه بدأ يتململ . . فى ظنى أنه لم يكن يتصور أننى سأهاجمه بكل هذا العنف ، فغاضت الابتسامة الصفراء فجأة من قسمات وجهه ، وقال لى فى برود :

هل انتهيت من سبابك ؟

السباب لن يشفى غليلى منك ، بعد أن سطوت على ما لا يُعاد ولا يُسترد . . ولكنى سأسجنك . . أتسمع ما أقول ؟ سأسجنك . . سأجعلك من أرباب السوابق ، وسيهدر عتاة المجرمين رجولتك عشرات المرات كل ليلة ، كما نسمع عن عالم الليل فى عنابر السجون . . وإلى أن يجىء يوم الإفراج عنك بعد قضاء مدة السجن ، ستجد نفسك بقايا مخلوق ، ولا أقول بقايا رجل ، لأنك لم تكن رجلاً يوماً ما . . وسترى فى أخواتك وفى بنات أخواتك مثل ما فعلت بى الليلة ، فلن تعْدم واحدة منهن نذلاً

مثلك يفعل بها ما فعلت بى ، يا عديم الرجولة والمروءة والشرف !

وقام عن مقعده فى هدوء وهو يقول :

ــ تفضلى لأحملك إلى حيث تريدين .

ــ أأركب معك ثانية ؟ ! !

قلتها وأنا أبصق على الأرض . . .

ــ إننى أتصرف تصرف المهذبين ، إذ لا يليق أن أتركك تنتظرين سيارة لا يعلم إلا الله متى يمكنك العثور عليها ، ونحن فى منطقة شبه معزولة عن زحام العمران .

وتناولت حقيبة يدى ، وبصقت على وجهه مرة ثانية ، وخرجت من الغرفة إلى ردهة المسكن متجهة إلى بابه ففتحته . . واكتشفت أنها « ڤيلا » تحيطها حديقة كثيفة الأشجار . . ولم يكد البواب يرانى حتى وقف رافعاً يده بالتحية ، فمضيت خارجة دون أن أنظر إليه .

سيارته كانت واقفة أمام الباب ، فالتقطت رقمها ودونته ، ورحت أبتعد .

* * *

لم أكن أعرف أين موقعى من القاهرة ، وفى أى أحيائها أقف هذه الوقفة الجريحة الذليلة . .

الليل أقبل ، ومصابيح الشارع أضيئت فأضاءت أمامى الطريق التى تظللها الأشجار من الجانبين ، فمنحنى الضوء بعض الطمأنينة . . ولكنى أحسست بساقى تتخاذلان وترتجفان عجزاً عن حملى .

صفير حاد أخذ يخترق أذنى ، ويدق جوانب رأسى . . والمرئيات أمامى

تدور وتتراقص ، كما لو دبت فيها الحياة بمعجزة !

أحسست بعيني تغيمان . . بغثيان . . برغبة فى القىء . . ولكنى تحاملت على نفسي ، وشهقت شهيقاً طويلاً فملأت صدرى بالهواء ثم زفرته ببطء . وظللت أسير وقد أبطأت من سرعتى ، حتى بلغت الشارع العام.

السيارات ، والمركبات ، وعربات النقل ، والدراجات ، والدكاكين ، والأضواء ، والحركة ، والحياة فى مختلف صورها ، فى شارع يموج بالألوف . . واكتشفت أننى فى أطراف مدينة المهندسين .

الغريب أننى شاهدت سيارة من سيارات الأجرة واقفة ، وسائقها خلف عجلة القيادة يدخن سيجارته فى هدوء ، فسألته أن يحملنى إلى البيت إن لم يكن ينتظر أحداً ، فأجابنى فى نبرة مهذبة ، وهو يلقى بقايا سيجارته : » تفضلى يا هانم ! «

وأحسست بالمرارة تملأ نفسى ، وقلبى ، ووجدانى ، وكل مسام جلدى . . أين كان هذا السائق قبل أن أركب مع ذلك الحيوان الضارى . . . هل حقًّا اسمه « عبد الحميد لطفى » كما قال لى ؟ . . من يدرى ؟

حملتنى السيارة إلى بيت أسرتى ، واعتذرت لوالدتى عن عدم استطاعتى مشاركتهم العشاء ، ودخلت غرفتى وأغلقت بابى على ، لأبدأ معاناة أرق لا عهد لى به . . انتابنى أرق عات مدمر ، لازمنى بصورة مستمرة ، حتى ليخيل لى أنه أصبح حالة مرضية . . إننى لم أنم منذ تلك الليلة حالكة السواد ، حتى هذه اللحظة . . لم أنم حقيقة ، ولقد لاحظت والدتى ما طرأ علىّ من تغيير ، كما لاحظه خالى . . وسألنى كل منهما عما بى ، فأجبت بأننى أعانى حالة أرق لا أدرى لها سبباً . . .

والتفتت عصمت إلى خالها الجالس بجانبها ، وهى تقول :

ــ خالى أحمد يتذكر هذا طبعاً .

أجاب خالها فى صوت مقهور : « طبعاً أتذكره يا ابنتى » .

سألها النائب : « ولم لم تأت إلينا فى الليلة ذاتها ، للإبلاغ عما حدث ؟ »

أطرقت عصمت قليلاً . . وهزت رأسها فى أسى ، وهى تجيب :

ــ سيادة النائب يستطيع – بلا شك – أن يدرك حال بنت مثلى ، جرى لها ما جرى لى . . فظاعة إحساسي بفداحة ما فقدت بعد الاعتداء علىّ . . الخوف . . الرعب . . خشية الفضيحة ، والتفكير فى محاولة اتقائها ، وكيف يكون هذا الاتقاء . . ثم والدتى وأهلى . . كيف يكون وقع ما حدث لى عليهم . . من أين أجد الجرأة ، وأنا فريسة كل هذه الصراعات ، على أن أحضرلمقابلتك أولمقابلة أى زميل لك ، لأروى قصة عارى . . إننى لم أجد الشجاعة لأطلع والدتى أوخالى على ما جرى لى ، لولا أن دفعتنى صديقتى « صفاء » لأخطو هذه الخطوة . . بل إنها جنّبتني حرج الموقف المخزى الأليم ، فتولت المهمة نيابة عنى ، وقصت على والدتى القصة بحذافيرها ، ونقلتها والدتى بدورها إلى خالى ، فهو الرجل الوحيد فى أسرتنا بعد وفاة والدى . . فجاء بى إلى هنا لأقول كل شيء

سألها النائب : « هل معك رقم السيارة ؟ »

ــ هاهو ذايا سيدى : « ٦٠٦٠٦٠٦ – ملاكى جيزة »

ــ قلت إن اسمه عبد المجيد لطفى ؟

ــ عبد الحميد وليس عبد المجيد – هكذا قال لى ، ولا أعرف إن كان صادقاً أو غير صادق .

التفت النائب إلى كاتب التحقيق ، وقال له :

اكتب يا سيد رمضان . . « يتم الاتصال فوراً بقلم مرور الجيزة ، للاستفسار عن اسم صاحب السيارة (٦٠٦٠٦٠٦٠٦ – ملاكى جيزة) ، وعنوانه ، ويستدعي للحضور أمامنا غداً الاثنين ٢٦ أبريل الساعة الثانية عشرة ظهراً لاستجوابه » .

ثم استدار بمقعده إلى عصمت ، وسألها :

– أتريدين إضافة شئ آخر يا آنسة عصمت ؟

أجابته فى صوت يائس : « لقد قلت كل ما عندى » .

قدم لها قلماً ، وهو يقول : « لو سمحت ، وقعى هنا . . عند نهاية أقوالك » .

ووقعت عصمت باسمها واضحاً وكاملاً ، بينما كان وكيل النائب العام يقول لها :

– ستشرفيننا مع الأستاذ أحمد غداً ، فى الثانية عشرة ظهراً ، لمواجهتك بصاحب السيارة ، إذ من يدرى . . قد يكون شخصاً غيره . . أعنى غير من ركبت معه واعتدى عليك .

وأطرقت عصمت برأسها ، وقد صعدت الدموع إلى عينيها ، وهى تقول فى همس : « سأكون هنا فى الثانية عشرة ، ظهر غد » .

٣

في الثانية عشرة تماماً ، ظهر اليوم التالى ، دخل « عبد الحميد » غرفة وكيل النائب العام ، ومعه شخص تبدو على وجهه سمات الجد وجهامة من أخذ الأهبة لمعركة لامفر منها .

وكانت « عصمت » تجلس قريبة من خالها « أحمد » فى جانب من الغرفة ، وبمجرد أن وقعت عيناها على غريمها ، همست فى أذن خالها : « هذا هو يا خالى » .

تقدم عبد الحميد من وكيل النيابة فى ثقة واعتزاز ، وهو يقول فى صوت هادئ :

ــ سيادة النائب ، أنا عبد الحميد لطفى ، وقد تلقيت هذا الاستدعاء للمثول أمامكم فى هذه الساعة من هذا اليوم .

رفع النائب رأسه عن الأوراق التى أمامه ، ونظر إلى عبد الحميد ، وقال له فى هدوء : « تفضل . . اجلس ! » .

وأضاف عبد الحميد ، مشيراً إلى مرافقه :

ــ وكيلى ، الأستاذ صادق الكاشف المحامى

أشار النائب إلى مقعد آخر مجاور ، وهو يقول للمحامى : « تفضل يا أستاذ صادق ! » .

وأومأ إلى « عصمت » وخالها لينتقلا إلى مقعدين قريبين من مكتبه ، فأصبح الجميع فى شبه حلقة صغيرة ، يتصدرها وكيل النائب العام ، وبجانبه كاتب النيابة ، وعن يمينه عبد الحميد ومحاميه ، وعن يساره

عصمت وخالها أحمد .

وافتتح النائب محضره ، فسأل عبد الحميد عن اسمه ، وعمله ، وعنوان مسكنه . فأجاب عن كل هذا فى هدوء غريب . . وكان أغرب ما فى هذه الإجابات جميعاً أن اسمه « عبد الحميد لطفى » حقيقة ، أى أنه لم يغير اسمه عند ما قدم نفسه لعصمت يوم أن دعاها لتركب إلى جانبه فى سيارته ، ليحملها إلى حيث كانت ذاهبة .

ثم قدم بطاقته الشخصية ، عندما سأله النائب إياها ، فأثبت هذا رقمها وتاريخ إصدارها فى المحضر ، وأعادها إليه .

وعن عنوانه أجاب بأنه يقيم فى مسكنه الخاص ، الذى بناه . . « ڤيلا » عند نهاية مدينة المهندسين ، فى شارع تم شقه حديثاً فلم يعلن اسمه بعد . . وبالتالى فإن مسكنه لم يتم ترقيمه .

وأضاف بعد لحظة صمت : « سمعت أنهم قد يطلقون اسمى على هذا الشارع ، باعتبارى أول من بنى فيه بيتاً » .

ولم يعلق النائب على عبارة عبد الحميد الأخيرة ، ولكنه وجه له سؤالاً مباشراً ، وهو يشير إلى عصمت : « هل تعرف هذه الآنسة ؟ » .

ـــ إلتفت عبد الحميد إلى عصمت ، وأجاب فى براءة الأطفال :

ـــ طبعاً أعرفها ، وإن كنت أجهل اسمها ، لأننا لم نلتق غير مرة واحدة ولقد قالت لى إن اسمها « فيفى » .

ـــ كيف وأين ومتى التقيت بها ؟

ـــ سيادة النائب ، أتأذن لى بإعادة ترتيب الإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة ، فأجيب أولاً عن « متى » التقيت بها ؟ . . . فأقول : منذ نحو

ثلاثة أسابيع . . ربما أكثر بيوم أو يومين . . لا أذكر !

– لا بأس . . . لا بأس .

– ثم أجيب ثانياً عن « أين » ، فأقول : فى شارع الدكتور مصدق بالدق ، حوالى الساعة الخامسة مساء ، أو بعدها بقليل . . أما عن « كيف » التقيت بها ، فقد كنت منصرفاً فى تلك الساعة – من ذلك اليوم – من زيارة بيت الأسرة . . أعنى بيت والدنى وأخواتى . . وكنت أقود سيارتى ، وإذا بهذه الآنسة تعترض طريقى ، وهى ترفع لى إبهامها إشارة إلى أنها ترجو أن أحملها معى إلى حيث هى ذاهبة . . « موضة » جديدة تفشّت أخيراً فى شوارع القاهرة ، كما تعرف سيادتك ولاشك ! . . فتوقفت عن المسير مروءة منى ، وفتحت باب السيارة ، وقلت لها : تفضلى ، فأنا أعرف صعوبة العثور على « تاكسى » !

لم تكد عصمت تسمع هذا حتى هبّت عن مقعدها ، وهى تصرخ :

– كاذب . . كاذب . . كاذب يا سيادة النائب . . أقسم أنه كاذب !

ولم يهتز عبد الحميد لثورتها . . لم يرد بكلمة واحدة !.

محاميه هو الذى تدخل ، فقال للمحقق :

– أرجو من سيادة المحقق أن يحمى موكلى من سباب الآنسة . . إننا للآن لم نعرف لماذا استدعينا . . لماذا استدعت النيابة موكلى ؟

أشار النائب إلى « عصمت » فى هدوء لتلزم الصمت ، فعادت إلى مقعدها والإحساس بالقهر يفتك بكل خلايا جسمها . . وعاد المحقق يسأل عبد الحميد :

– ماذا حدث بعد أن ركبت إلى جانبك فى سيارتك ؟

– ما يحدث عادة بين شاب وفتاة ، التقيا فى الطريق ، على هذا النحو . أحاديث فارغة تافهة . . سألتها إلى أين ؟ فقالت إلى أى مكان . . فعدت أسألها : «هل لديك ما يمنع أن تصحبينى إلى مسكنى ؟ إنى أسكن – مدينة المهندسين – ڤيلا جميلة بنيتها حديثاً ، وهى مؤثثة بأثاث فاخر ، ولها حديقة جميلة ، وشرفة ساحرة ، جلسة واحدة فيها تطيل العمر» . . فابتسمت وهى تقول لى ، من جانب شفتيها : «أنت عفريت . . شقى» !

وهبت عصمت عن مقعدها مرة أخرى ، وهى تصرخ فى صوت أبح :

– نهار أسود . . أستغفر الله العظيم . . أستغفر الله العظيم !

وعاد المحقق يشير إليها لتجلس ، ولتلزم الهدوء . . فحطت على مقعدها وقد غص حلقها ، وشرقت عيناها بالدموع . واستأنف المحقق توجيه أسئلته إلى عبد الحميد : «وبعد ؟»

– وهل لهذا من بعد . . إلا ما هو معروف ومألوف ؟ توجهنا معاً إلى مسكنى ، وأمضينا معاً وقتاً سعيداً ، كأى شاب وفتاة ، ولما سألتها اسمها ، قالت لى : «فيفى» ، ولم تزد . . أعنى أنها لم تصرح لى باسمها الحقيقى . . . حاولت أن أعرف منها رقم «تليفونها» ، فقالت إنها تفضل أن أترك لها الاتصال بى . أخذاً بالأحوط . . ثم انصرفت معززة مكرمة .

عند هذا الحد تدخل المحامى ، فسأل المحقق :

– سيادة النائب . . موكلى – للآن – لا يعلم لماذا استدعته النيابة ! ! هل هناك أى اتهام موجه له ؟

– الآنسة عصمت تتهم الأستاذ عبد الحميد لطفى بأنه خدرها فى

السيارة – عن طريق الشم – بعد أن ركبت بجانبه ، وعندما أفاقت من غيبوبتها من تأثير المخدر ، وجدت نفسها شبه عارية فى فراشه ، وقد اعتدى عليها أبشع اعتداء . . .

ولم يكد عبد الحميد يسمع هذا الاتهام ، حتى نظر إلى عصمت والمرارة تملأ صوته ، وهو يقول :

– أهكذا يكون جزاء إحسانى إليك يا آنسة ؟ . . أتنكرين أنك سألتنى – وأنت تتأهبين لمغادرتى – عشرين جنيها ، فأعطيتك خمسين ؟ صحيح . . اتق شر من أحسنت إليه !

ولم تملك « عصمت » نفسها ، فهبت للمرة الثالثة عن مقعدها كالقذيفة ، وهى تصرخ فى شبه جنون :

– اخرس ! . . إخرس ! . . لو ملكت الآن أن أقتلك ما ترددت لحظة واحدة . . ولكنى – حتما – سأقتلك يوماً ما . ! . سأقتلك جزاء كذبك الحقير ، وافترائك الفاضح الظالم ، وجبنك الذى يزرى بأى رجل . . إن كنت من الرجال !

ولم يزد عبد الحميد عن أن يطرق ، وهو يقول :

– سيادة النائب . . أرجو حمايتى من سلاطة لسان السيدة !

واندفعت عصمت نحو المحقق وهى تبكى :

– أنا التى أطلب الحماية ياسيادة النائب . . أطلب الحماية من هذه الافتراءات ، التى يحاول بها أن يجعل منى عاهراً أو بغيًا . . إنه قتلنى مرة منذ ثلاثة أسابيع ، عندما سلبنى أغلى ما أملك ، محتالاً بأخس الحيل . .واليوم يقتلنى مرات بادعاءاته الفاضحة . . .

أجابها المحقق ، وقد رسمت المرارة خطوطها على جبينه :

– آنسة عصمت . . للمدعى أن يقول ما يشاء ، وقد قلت كل ما عندك باعتبارك المدعية . . كذلك ، للمدَّعَى عليه أن يقول ما يشاء دفاعاً عن نفسه ، ولا أحد يملك أن يمنعه – وهو فى موقف الاتهام – من أن يقول كل ما عنده . . ومهمة النيابة فى النهاية أن تتقصَّى الحقيقة لتصل إليها ، فأرجو منك أن تعودى إلى مقعدك ، وأن تهدئى قليلاً !

فى هذه اللحظة تدخل المحامى ، قائلاً :

– سيادة النائب ، أرجو أن يُسمَح لى بالاطلاع على اتهام السيدة لموكلى ، فى بلاغها لسيادتكم ، لأستطيع أن أفند أقوالها ، لننتهى من هذا الموقف الذى تحاول أن تجعل منه مشكلة ولا أعتقد أنه كذلك .

قدم المحقق للمحامى أقوال عصمت ، التى أدلت بها فى اليوم السابق ، مذيَّلة بتوقيعها ، وهو يقول :

– إن ادعاءها يختلف تماماً عن أقوال المدعى عليه .

– لهذا رجوت أن أطلع على تفاصيل هذا الادعاء .

وفى لحظات ، انتهى المحامى من الاطلاع على أقوال عصمت ، فرد المحضر للمحقق وهو يقول :

أرجو أن يُسمَح لى بتفسير قصير ، أعتقد أنه سيكون فصل الخطاب .

– تفضل !

– أرجو أن يسجل كاتب التحقيق فى المحضر كل كلمة أمليها عليه ، لأن ما سأمليه سيكون خاتمة ما لدينا من أقوال ، ردا على كل ادعاءاتها الكاذبة . . هذا إذا سمح السيد المحقق !

التفت النائب إلى كاتب التحقيق ،وأومأ لهبتسجيل ماسيمليه محامى المدعى عليه ، الذى بدأ يقول :

– المدعية السيدة عصمت أمين مرتضى تعترف فى بلاغها بأنها ركبت مع موكلى المدعى عليه بكامل رغبتها وحريتها . . ومعنى هذا أنه لم يقسرها على أن تركب معه برغمها . . .

« وهى باعترافها ، تتم الرابعة والعشرين من عمرها السعيد ، المديد إن شاء الله ، بعد أيام . . ومعنى هذا أنها بالغة سن الرشد ، يعنى راشدة وعاقلة وتملك أمر نفسها . .

« وسأتمشى معها ، وسأصدقها . . وسأفترض صدق افترائها على موكلى بأنه خدرها ، ليصحبها إلى منزله بعد أن تفقد إرادتها ، لينال منها ما تدعى أنه ناله . . إن صح هذا – كل هذا – الذى تدعيه السيدة المدعية ، فلا جريمة على موكلى ، لأن السيدة – كما قدمت – راشدة وعاقلة وتملك أمر نفسها ، ولأنها ركبت معه بمحض إرادتها ، من واقع أقوالها فى البلاغ الذى تقدمت به إلى النيابة العامة . . وهى – لكل هذا – تتحمل نتيجة تصرف البالغين الراشدين العقلاء . . وهى إن كانت جادة وصادقة فى ادعائها ، فلمَ لم تبلغ النيابة بما وقع عليها من اعتداء ، ليلة أن تم الاعتداء عليها ؟ . . أين كانت خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، التى انقضت منذ أعتدى عليها موكلى – كما تدعى – حتى اليوم ؟

« من هنا يتبين عدم جدية التهمة التى تحاول المدعية إلصاقها بموكلى ظلما ، لتحقيق غاية فى نفسها . . ولهذا أطلب حفظ البلاغ ، والإفراج عن موكلى بلا ضمان ولا كفالة ! »

عند هذا الحد . انفض المولد ، أو السامر ، أو الندوة ، أو الاجتماع ، أو المهرجان ، أو المؤتمر . . أو أى شىء ! . . فقد انتهى التحقيق . .

انتهى التحقيق بحفظ البـــلاغ ، وأفرجت النيـــابة عن السيد « عبد الحميد لطفى » بلا كفالة ولا ضمان . . « لأن البلاغ المقدم ضده من الآنسة – أو السيدة المدعية عصمت أمين مرتضى – لا يتضمن جريمة يعاقب عليها القانون ، حيث إنها باعترافها ركبت سيارته برغبتها ، دون أى إرغام ، أوضغط ، أوقسر ، أوتهديد . . وحيث إنها بالغة وراشدة ، وتملك أمر نفسها ، وتستطيع أن تفرّق بين ما يجوز ومالا يجوز ، فإنها تتحمل نتيجة ما تقدم عليه . . وأقفل المحضر» !

وقام عبد الحميد عن مقعده ، وقام محاميه معه . .

وقامت عصمت ، كما قام خالها . .

لم يفتح أحدهم فمه بكلمة ! . . عصمت كانت الوحيدة التى تكلمت ، فسألت المحقق :

– هل هذا هو القانون يا سيادة النائب ؟

فأجابها النائب بنبرة مهذبة ، وبصوت خفيض :

– نعم يا آنسة عصمت . . إنه القانون !

رفعت عصمت رأسها ، وقد أحست بأنها تكاد تختنق . . ولكنها تمالكت أعصابها ، لتقول فى هدوء :

– مادام هذا هو القانون ، فهذا إذن حق يا سيادة النائب . . فقد ركبت سيارته برغبتى ، وبإرادتى ، وبدون أى إرغام ، أو ضغط ، أو قسر ،

أو تهديد . . وأنا بالغة وراشدة وأملك أمر نفسى ، وأستطيع أن أفرق بين ما يجوز وما لا يجوز . . ولهذا يجب أن أتحمل نتيجة ما أقدمت ، أو ما أقدم عليه !

٤

فى المساء ذاته ، كان عبد الحميد يجلس مع أقرب أصدقائه إليه ، فى حديقة السطح بأحد الفنادق الكبرى بالقاهرة ، يروى له تفاصيل ما جرى ظهراً فى غرفة التحقيق ، وكيف كان وقع قرار حفظ البلاغ على « عصمت » ، وإن تقبلته بهدوء غريب ، وبأعصاب من حديد . . ثم أضاف بلهجة السوقة : .

– حلوة بنت الكلب ؟ . . حلوه صحيح يا حافظ ، وكنت أتمنى ألا تثير كل ما أثارته ، حتى أظل على علاقة طويلة بها . . ولكنها صعَّدت الأمر ، فبلغت به إلى النيابة ، وهو ما يحدث لى لأول مرة ، لأنهن – جميعاً – يخفْن الفضيحة ويتقينها . .

أجابه صديقه ، وهو يرشف رشفة من كأسه :

– ربما لأنها كانت بكراً . . وسقطتها ستنكشف يوماً ما ، لا محالة . . بعكس الزوجة ، أو المطلقة ، أو الأرملة – ، فهى تستطيع أن تبتلع غصتها فى صمت ، وأن تدارى عارها ، فلا يدرى أحد بما وقع لها !

أطلق عبد الحميد دخان سيجارته ، وهو يرد كأسه إلى سطح المائدة ، قائلاً لصديقه :

– لا يا حافظ . . هذه البنت – عصمت – جريئة جرأة غير مألوفة . .

إنها البكر الوحيدة التى أفشت سرّها لأهلها ، وأبلغت النيابة . . هذه أول « حالة » من نوعها تصادفنى فى مغامراتى .

– تعنى أنك صادفت أبكاراً غيرها من قبل ؟

– كثيرات

– و . . . .

– وأرضيت كلاًّ منهن بكلمتين ، وأغرقتهن بهدايا وفلوس ، مع إشارة مغلّفة مهذبة – من بعيد – إلى فضيلة اتقاء الفضيحة ، وأن ما وقع وقع . . وأنها تستطيع الاعتماد علىّ ، والالتجاء لى دائماً ، وفى أى وقت ، وأية مناسبة . . ولا مانع من وعد عائم بالزواج . . عندما يحين الحين !

وبنفس لهجة السوقة ، أضاف عبد الحميد لطفى :

– هذا طبعاً لمن أعجبتنى منهن ، ومن أحسست بأنه يسعدنى أن ألتقى بها أكثر من مرة . . أما الأخريات – من درجة « مقبول » بلغة الجامعات – فكنت أكتفى باسترضائهن وإرضائهن . . أعنى لقاء واحداً وحسب . . يعنى مرة والسلام عليكم !

وأمسك عبد الحميد لحظة ، وهو يقول فى غيظ لم يحاول أن يخفيه :

– أما هذه ، فقد . . « فَرَسَتْنى » !

وضحك صديقه وهو يقول : » والله يا أخى أنت جبار . . أبَعْد أن تفعل بها ما فعلت : « تقول إنها فَرَستك » ؟ . . ماذا تقول هى إذن عنك ، بعد أن ذبحتها ؟ !

وشرب عبد الحميد جرعة كبيرة من كأسه ، وهو يقول : « على أية

حال ، هى الخاسرة ! »

– هى خاسرة خاسرة ، وهذه حقيقة لا شك فيها . . لقد خسرت ما لا يُعوَّض فى لعبة !

– لا أعنيها خاسرة بالمعنى « المتخلِّف » الذى فهمته حضرتك !

ضحك صديقه وهو يسأله : « شيئاً من التوضيح من فضلك ، واغفر لنا تخلفنا وقصر نظرنا . . ماذا تعنى بقولك إنها الخاسرة . . من وجهة نظرك غير المتخلفة ؟ »

– يعنى ، مثلاً . . إنها خسرت صديقاً تستطيع أن تلجأ إليه فى أية مناسبة ، صديقاً يغرقها فى الفلوس والهدايا والعطايا والمنن . . كما كانوا يقولون أيام زمان . . والسر فى بئر بينى وبينها !

– ولكن هذه البئر ستكشف يوماً – لا محالة – عما بها . . يوم أن تتزوج فتكون الكارثة .

ضحك عبد الحميد ضحكة خافتة ، قصيرة ، ساخرة ، وهو يقول بلهجة أبناء الشوارع : « والله يا ابنى . . أنت على نياتك ! »

– كيف ؟

– أتظن ما تتحدث عنه لا يزال مشكلة فى الربع الأخير من القرن العشرين ؟

– ألا تراها أنت كذلك ؟

– هذه أمور تُعالَج بعشرة جنيهات ، قبل ليلة الزفاف بليلة ، فيعود كل شىء إلى ما كان عليه من قبل ! . . ويدخل العريس بعروسه فى أمان الله ، وهى كأى عذراء لم يمسها بشر ! . . ثم يصحو صباح اليوم التالى

لزفافه ، يبتسم ويتمطى كأى طرزان ، بعد أن فتح عكا ، ظنًّا منه أنه انتظم سلك الفاتحين . . ثم يحتفظ بالمنديل . المرصّع بقطرات من دمها الغالى ، كأغلى ما يعتز به فى حياته للذكرى والتاريخ !

وزفر الهواء من أنفه ، وهو يحاول أن يكتم ضحكة أحس بأنها ستغلبه وهو يقول :

– هل عرفت الآن كيف أنها الخاسرة ، وكيف أنك على نياتك ؟

وسأله صديقه حافظ ، مبهوراً بما سمع :

– هل فعلتها من قبل يا عبد الحميد ؟ . . أعنى مع عذارى ؟ . . أبكار ؟

– مع ثلاث ، جاءتنى كل منهن قبل أن تزف إلى خاطبها بأيام ، وهى تسألنى كيف تتصرف ، فكنت أصحبهن إلى متخصص لينهى المهمة فى عشر دقائق ، ثم عشر دقائق ثانية لتفيق من المخدر ، وتقوم بعد ذلك كالغزال ، لتدخل – هى – بعد ذلك على زوجها بقلب من حديد ! . . كلهن تزوجن ، وأنجبن ، ويعشن سعيدات مع أزواجهن ، والسر فى بئر ، كما قلت لك . . فأنا رجل شريف صاحب مروءة ، وأعرف كيف أصون أسرار الحرائر !

وضحك حافظ من قلبه وهو يقول : « الله يخرب بيتك يا عبد الحميد . . أنت شيطان ! »

ورفع عبد الحميد كأسه إلى شفتيه ، وهو يقول :

– على أية حال ، أنا عينى على بنت يا حافظ . . لو قدر لى أن أنالها ، فإنها قطعاً ستمحو عصمت وغير عصمت من تاريخى الحافل المجيد !

– جميلة إلى هذا الحد ؟

– إنها شيء غير عادى . . « فَلْتَة » . . تستطيع بسهولة أن تقول إنها فلتة . . إلى جانب مظهرها الرفيع ، وأناقتها العالية . . لاشك فى أنها من أسرة كبيرة ، ومن مستوى عال .

– أتعرفها ؟

– لا أعرف عنها أكثر من أنها لا يمكن أن تتجاوز الثالثة والعشرين ، وأنها تستطيع بجمالها أن تُنْطِق الأصنام التى كانوا يعبدونها أيام الجاهلية . .

– نهارك أسود !

– والله يا حافظ إنها كما أقول لك . . جمالها ينطق الحجر . . يخسف القمر . . يسقط المطر ، والسجع غير مقصود !

– ما هذا كله ؟

– إنها تبدو كحجر الماس الكريم ، يضوّى خلف واجهة من البلّور !

– ألا تعرف من هي ؟ . . اسمها ؟ ابنة من ؟ أين تسكن ؟

– الشطر الأخير من سؤالك – أين تسكن ؟ – هو المهم .

– لتستطيع أن تراقب خروجها ودخولها ؟ !

– دخولها لا يهمنى . .

– خروجها هو الأهم ؟

– إنها الفرصة الوحيدة المتاحة . . عندما أراها تحاول أن تستوقف إحدى السيارات دون جدوى ، وأكون بعيداً عنها أراقبها ، فأتقدم عارضاً عليها أن أحملها إلى حيث تريد .

وازدرد جرعة أخرى من كأسه ، وهو يقول فى سعار جنونى .

– آه يا حافظ . . لويتمّ هذا ! ! . . آه يا حافظ !

– ماذا تفعل ؟

– أتوب !

– أنت ؟

– ولم لا ؟

– ولماذا لا تتوب توبة صادقة على يديها ، مادامت تعجبك إلى هذا الحد ؟

– وهل قلت غير ذلك ؟ سأتوب بعد أن أنالها .

– إنك تستطيع أن تنالها الليلة .

– كيف ؟

– تذهب إلى ذويها وتتزوجها فى نصف ساعة ، ولن يرفضوك لأنك لا تنقصك غير هذه التوبة النصوح لتكون زوجاً كاملاً ، فأنت شاب وغنى ، ومتعلم ، وابن ناس . . أنت صحيح سافل السلوك والتصرفات . . ولكن مادمت ستتوب كما تقول ، فإنك ستعود إلى أصلك ، ابن ناس . . كما يقولون !

وضحك عبد الحميد من قلبه ، وهو يقول لصديقه : « ألم أقل لك إنك على نيّاتك ؟ »

– لم أنكر أننى هكذا .

– أتريد منى أن أتزوج ؟

– ولم لا ؟ مادمت ستتزوج فتاة يحرقك الشوق إليها كما أرى ، وهى بالتأكيد من أسرة طيبة ، ومن وسط محترم ، كما قلت أنت الآن .

هز عبد الحميد كتفيه ، وهو يغالب الضحك ، وقال :

– الزواج ليس لعبتي .

– مهما كانت جميلة ؟

– مهما كانت جميلة ، فالجمال لا نهاية له ولا حدود .

– وإلى متى يا عبد الحميد ؟

– إلى أن أشبع .

– عندما تشبع لم تجد من ترضى بك ، لأنك لن تشبع إلا مرغماً ، بعد أن تكون قد انتهيت !

– وما دمت قد انتهيت ، فما حاجتي لامرأة ؟

– لا فائدة منك ياعبد الحميد . . ولكنك – برغم كل هذا – قد أثرت فضولي لكي أرى ساحرتك الجديدة ، التي حدثتني عنها .

– خذها كلمة مني . . ليلة أن « تَطُبّ » وتصبح في فراشي ، سأتصل بك تليفونياً من غرفة نومي ، لكي تحضر لتراها ولتسلم عليها ، ثم تنصرف .

– وعد ؟

– وما المانع ؟ وعد طبعاً ، ولكني ثرثرة ، فقد قلبت لي دماغي ، ولقد جعت . . ألم تجع أنت ؟

طبعاً جعت .

– سآمر بالعشاء حالاً ، ثم نتحدث أثناء تناولنا الطعام .

٥

الشهور تمضى . .

وعبد الحميد لا يتخلف يوماً عن مراقبة صيده الجديد المأمول بمقربة من بيت أسرتها بحى « جاردن سيتى » .

إنه لا يعرف عنها شيئاً ، ولايهمه أن يعرف ، فهولا يراها إلا بغرائزه وحيوانيته ، وقد بلغ به الشوق إليها حد الهوس !

إنه يراها صورة جميلة ، مضيئة ، مثيرة . . وحسب !

يراها شعراً فاحماً لامعاً غزيراً ، ينساب فوق كتفيها فى دلال آسر . . ويراها عينين سوداوين ساجيتين عميقتين ، تنفثان سحراً دار له رأسه ، يوم وقعت عيناه عليها لأول مرة . . ويراها صدراً بكراً ناهداً ، وخصراً دقيقاً ناحلاً ، وردفين يبدوان فى حركتهما الرتيبة - أثناء سيرها - كإيقاع منتظم لرقصة ساحرة ، تؤديها راقصة من راقصات الجنة . . إذا كان فى الجنة رقص وراقصات ! . . ويراها ساقين متناسقتين مستويتين جميلتين ، تشعلان حريقاً فى قلبه مع كل خطوة من خطاها ، تدق بهما حصباء الطريق ، وهذا حسبه ! . .

ماله هو - وماذا يهمه - إذا كان اسمها أمينة ، أو زوزو ، أو فاطمة ، أوشارلوت ، أو كريستين ، أوفرناندا ، أو . . أم سحلول ؟ !

إنه يريدها وحسب . . يريدها أياً كانت ! . . لا يهمه من تكون ، ولا من يكون أبوها ، ولا لأية أسرة تنتمى . . ولا يعنيه إذا كانت طالبة ، أو عاملة ، أو ربة بيت ، وإن كان يستبعد الاحتمال الأخير ، فإنها تبدو

أصغَر من أن تكون مسؤولة عن بيت وزوج وأطفال . .

حسبه أنها بلغت سن الرشد ، وهذا واضح وضوح الشمس . . وهو كل ما يعنيه ويحسب له ألف حساب . . إنها ليست من صديقات النائب العام ، اللواتى يتمتعن بحمايته ، فقد تخطت هذه المرحلة من سنها ! .

* * *

إلى أن كان يوم . .

يوم أسود ، سواد الهباب . . !

كل شيء كأنما أعد خصيصاً من أجل خاطره وسواد عينيه ، لتقدمها له الأقدار قطعة من الماس البراق الثمين على صفحة من البلاتين الخالص . . ومن حيث لم يكن يتوقع أو ينتظر !

كيف تم هذا ؟

تم بمنتهى البساطة ، وبمنتهى السهولة ، وفى ثوان . . وهو الذى أمضى الشهور ينتظرها ويترقبها دون جدوى . .

كان عائداً من مزرعته ، فقطع بسيارته شارع الأهرام إلى أن وصل ميدان الجيزة ، فانحرف يساراً إلى شارع الجامعة . .

الساعة حول معصمه تشير إلى السادسة مساء . .

كان سعيداً فى ذلك اليوم ، يحس بخفة ونشاط ابن العشرين . . وكان يحمل فى جيب سترته الداخلى ألفين من الجنيهات ، ثمن ثمار حديقة البرتقال التى باعها على أشجارها . .

وأبطأ السير قليلاً ، بعد أن خفف ضغط قدمه على صمام الوقود ، وهو يلقى نظراته السعيدة على جانبي الشارع بين حين وحين . .

فجأة . . !

فجأة لمحها ! . . لمحها من بعيد ، واقفة على إفريز الطريق . . رآها تشير إلى « تاكسى » ، فلم يقف لها . . وفى أعقابه آخر ، كان يحمل أسرة من أب وأم وطفلين . .

وقال لنفسه بصوت سمعته أذناه : « هذه تستحق سيارة رولز ، ولا أقل من رولز ، تُصْنَع لها بمواصفات خاصة » .

إنها هى . . هى بعينها ولاشك فى هذا مطلقاً !

لقد أمضى الشهور ينتظرها قريباً من بيتها – بيت أسرتها – فى « جاردن سيتى » ، لعلها تخرج وحدها يوماً . . ولكنه لم يوفق . من يدرى ؟ . . لعله ليس بيت أسرتها ، ذلك الذى رآها تدخله يوماً . . لعلها كانت زائرة فى ذلك اليوم . . ولعلها تسكن بيتاً من هذه البيوت الحديثة ، التى قامت فى شارع الجامعة ، خلال ربع القرن الأخير .

أوقف سيارته بسرعة وفى هدوء ، وفتح الدرج الصغير الذى أمامه ، وأخرج منه قارورة وقطعة قطن بللها مما فى القارورة ، ثم دسها بين طيات منديله ، ثم أغرق المنديل بقطرات غزيرة من عطر نفاذ ، أخاذ ، قوى ، جميل تضمه قارورة أخرى . . وأعاد المنديل إلى جيبه ، واستأنف السير . .

أخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً . .

وشيئاً فشيئاً تتضح له صورتها الشهية المضيئة ، التى أدارت رأسه يوم أن رآها للمرة الأولى . .

رأسه يدور من جديد كلما اقترب منها ، وقلبه يدق بعنف كلما أحس بأنه يقترب من لحظة المواجهة التى ترقبها طويلاً . . كان إحساسه إحساس

من بدأ العد التنازلى مقترِباً - رقماً برقم - من بدء مغامرة تتوقف عليها حياته . . إنه يقترب من الصفر !

وقالت له نفسه : « هذه فرصة عمرك يا عبد الحميد ! »

فى هذه الأثناء - وقبل أن يقترب منها ويصبح بمحاذاتها تماماً - مرت بها أكثر من سيارة من سيارات الأجرة ، فكانت تشير لكل منها دون أن تقف لها واحدة من هذه السيارات .

- تقدم يا عبد الحميد !

قالتها له نفسه !

توقف بسيارته وفتح بابها ، وهو يقول فى صوته الخفيض ، وبلهجته المهذبة :

- الآنسة . . لو سمحت لى بحملها إلى حيث هى ذاهبة ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً .

نظرت له - دون استنكار - وهى تقول : « شكراً ، ولكنى . . »

وأسرع هو يلتقط الحديث منها : « ولكنك ماذا ؟ . . إن العثور على تاكسى فى هذه المنطقة - فى هذا الشارع بالذات - يعتبر حدثاً لا ينقصه إلا أن تنشره الصحف ، ولا شك فى أنك أمضيت ما لا يقل عن نصف ساعة تنتظرين . . . »

نفس الكلمات ، ونفس الألفاظ التى أصبحت - لكثرة تكرارها - تنساب من بين شفتيه كما لو كانت مسجلة على شريط ، فهى لا تتغير .

وابتسمت عائدة . . اسمها عائدة ! . . ابتسمت وهى تقول :

- إننى حقيقة . . أمضيت نحواً من نصف ساعة فى انتظار تاكسى ، دون جدوى .

– إذن أرجو أن تمنحيني شرف حملك إلى حيث تريدين ، فإنني أرى الظلام يقترب ، ونحن الآن فى شهر نوفمبر ، وقد بدأ النهار يقصر . .

– لا أريد أن أزعجك ، أو أن أغير طريقك .

– إنني فى طريقي للقاهرة ، واسمحي لى بأن أقدم لك نفسي ، حتى لا تكوني على جهل بمن تركبين سيارته . . أنا عبد الحميد لطفى ، مزارع . . درست الحقوق ، هذا صحيح . . ولكني تفرغت لزراعة أرضي فى طريق الأهرام . . أزرعها كلها فاكهة ، بدلاً من متاعب المحاماة أو أسر الوظيفة . . تفضلى يا آنستي . . تفضلى !

أحس بترددها . . إنه – دائماً – يحس بترددهن . . وكانت عبارته المألوفة التي لا تتغير :

– آنستي . . إن لى شقيقات ، وبنات شقيقات ، بعضهن فى مثل سنك ، فأرجو منك ألا تجرحي أخا أكبر ، أو خالاً ، بمظنة سوء !

أجابته فى أدبها المفرط :

– لا سمح الله ، فما فكرت فى سوء قط . . سأركب معك ، فإنني – حقيقة – أخشى أن يتقدم بى الليل ، قبل أن أجد سيارة تعود بى إلى البيت . .

– تفضلى يا آنستي . . تفضلى !

وصعدت ، فركبت إلى جانبه ، وجذبت الباب فأغلقته ، وهى تقول :

– والدى قدم سيارته اليوم لتحمل عروساً من بيت أسرتها إلى بيت زوجها . .

ثم بعد لحظة ، أردفت : « والد العروس رجل طيب ، يعمل مع والدى ».

ثم بعد لحظة ثانية ، أضافت : « ولقد كنت فى زيارة صديقة لى ، أستعير منها كراسة المحاضرات ، لأنسخ منها ما فاتنى خلال مرضى ، أيام الأسبوع الماضى . . »

سألها وهو يتحرك بالسيارة : « الآنسة طالبة ؟ »

– بكلية الحقوق ، فى السنة النهائية.

ابتسم وهو يقول : « يعنى زميلة ! »

– سمعتك تقول إنك درست الحقوق .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قالت بعدها :

– أرجو ألا أبعدك كثيراً عن طريقك . . إننى أسكن « جاردن سيتى » .

– « جاردن سيتى » فى طريقى . . وسأحملك إليها .

وانطلق بسيارته . . وسمعها تقول له :

– إنى أخاف السرعة الزائدة ، فرجائى ألا تسرع كثيراً !

ابتسم وهو يجيبها :

– أنا أيضاً لا أحب السرعة الزائدة . . أترين هذه السرعة معقولة ، أم . . ؟

التقطت الحديث منه ، وهى تعلق حقيبتها بكتفها ، وقالت :

– هذه سرعة معقولة جداً . . وشكراً .

وكان يضع أمامه وردة نضرة ، يتضوّع عطرها فيملأ فراغ السيارة . . فالتقطتها « عائدة » ، وقرّبتها من أنفها تستنشق شذاها ، وهى تقول :

– هذه وردة جميلة . . من النادر أن تجمع الوردة بين جمال الشكل والشذى !

ابتسم وهو يسألها : « أتحبين رائحة الورد ؟ »

– أحب العطور الجميلة عموماً . . كل الناس تحب العطور الجميلة !

وأحسّ بقدمها تقترب من الفخ . . إنها تقترب من تلقاء نفسها ، دون أن يدفعها أحد .

قال – وابتسامة هادئة على وجهه – بينما عيناه على الطريق :

– أنا أيضًا ضعيف جدًّا أمام العطور الجميلة ، ولا أبخل بأى مال أدفعه ثمناً لقارورة عطر يعجبنى . . فى الصيف الماضى ، دفعت مائتى جنيه استرلينى ثمناً لقارورة عطر اشتريتها من « لانفان » فى باريس . .

نظرت له ، وقد فوجئت بضخامة الرقم ، وسألته فى دهشة :

– مائتا جنيه ثمناً لقارورة عطر ! !

– تصورى !

– هل هو « الآربيج » ؟

– الآربيج عفت عليه السنون ، ولم يعد أحد يستعمله .

– ما هو إذن ؟

– إنه أحدث مبتكرات « لانفان » .

– لاشك فى أنه شيءغير عادى . . إننى – فعلاً – أشم رائحة عطر ساحرة ، ما اسم هذا العطر ؟

وضع يده فى جيبه ، ثم أخرجها والمنديل بين أصابعه ، فقربه من أنفها ، وهو يقول :

– شمّى ، ولك أن تحكمى بنفسك . . ويخيل لى أنك ستعرفين اسمه

عندما تستنشقين شذاه .

استنشقت عائدة العطر الذى كان يتضوع من المنديل ، فقالت فى ضعف : « الله ! »

ارتسمت صورة الشيطان على وجهه بمعجزة ، وهو يقرب المنديل من أنفها أكثر ، ويقول : « شمّى لتحكمى بنفسك إن كان يساوى مائتى استرلينى . . أولا يساويها . . شمّى . . شمّى ! »

وضغط المنديل إلى أنفها ، وهو يردد :

– شمّى بعمق . . بعمق أكثر . . أكثر . . أكثر . . !

وأيقن من أنها راحت فى غيبوبة ، ولم تعد تدرى بشىء .

فى هذه اللحظة فقط ، ضغط صمام الوقود بقدمه ، فانطلقت السيارة بسرعة الصاروخ ، وكان قائداً ماهراً . . اخترق شارع الدقى فى دقائق ، حتى وصل إلى نهايته . . ومن نهايته مرق إلى مدينة المهندسين . .

انحرف يميناً ، ثم يساراً . . ثم يساراً ، ثم يمينًا ، إلى أن أصبح بعيداً عن العمران ، فهو يريد أن يصل إلى داره خلال طريق غير آهلة . . هذه عادته الدائمة فى مثل هذه الأحوال ، أن يسلك الطرق الخالية غير الآهلة !

وأوقف السيارة أمام الباب . ونظر إليها فوجدها تحاول أن تفتح جفنيها ، فقرّب المنديل من أنفها ، وأبقاه قليلاً إلى أن أغرقها – من جديد – فى غيبوبة أعمق .

* * *

هبط من سيارته ، وحمل الفتاة بين ذراعيه والحقيبة معلقة بكتفها ،

ودخل حديقة « الفيلا » . وكان البواب جالساً أمام الباب ، فوقف احتراماً له ، وحياه تحية المساء . . ولم يرد عبد الحميد تحيته . . كان مشغولاً عن الدنيا بما فيها ، ومن فيها ، بالحمل الخفيف الجميل الذى كان فوق ذراعيه .

تقدم إلى الدرجات الرخامية المؤدية إلى باب المسكن . وكان قد أعد المفتاح فى يده ، ففتح ، وأضاء النور ، وأغلق الباب . . واتجه إلى غرفة نومه ، فأضاء نورها ، ثم أرقد حمله الغالى على الفراش بهدوء وحرص بالغين .

خلص الحقيبة من بين ذراعها وإبطها ، ووضعها جانباً ، ووقف يتأمل صاحبتها لحظات ، من شعرها حتى قدميها . .

عراها بعينيه الجائعتين ، وأحس بحلقه يجف . . إنه يكاد يختنق ، فهو لا يستطيع أن يصدق ما يرى . . إنها راقدة فى فراشه ، لقمة سهلة سائغة !

نزع سترته وعلقها على مسند مقعد قريب ، ثم فك بنيقة (١) قميصه ، ونزع ربطة عنقه وألقاها على المقعد الذى يحمل سترته . . واقترب منها ببطء شديد ، وهو يتأملها فى شراهة جائع تشققت معدته وأمعاؤه وشفتاه جوعاً إلى قطعة لحم وعطشاً إلى قطرة ماء !

انحنى عليها ، وألصق شفتيه بشفتيها . . وراح يمتص منهما الشهد . . أحلى ماذاق فى حياته من شهد !

– سكر يا بنت الكلب سكر !

---

(١) البنيقة هى الياقة – « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور.

عبارته السوقية التى يعبر بها دائماً عن إعجابه وسعادته . . قالها وهو يحسر ثوبها الرمادى الأنيق عن ركبتيها ، وراح يتأمل فخذيها المضمومتين فى حسنهما الفريد . . ولم يتمالك نفسه ، فهوى بشفتيه عليهما يقبلهما ، قبلات مجنونة محمومة ، وقد تحول إلى حيوان .

وابتسم كمن تذكر شيئاً كان غافلاً عنه ، فرفع رأسه عنها ، وخلع قميصه فأصبح بنصف ثيابه . . ثم أخرج من جيب سترته المنديل ، الذى يضم قطعة القطن المبللة بالمخدّر ، ووضعه فوق أنفها لتظل فى غيبوبتها ، واتجه إلى المسرة القريبة من الفراش ، ورفع السماعة ، وأدار القرص بستة أرقام . . ولم تمض لحظات حتى بدأ حديثه :

– آلو ، يا حافظ !

كان يكلم صديقه حافظاً . .

– لك عندى مفاجأة ستذهل لها . . نعم . . حصل وطبّت . . وحياتك عندى ، طبّت يا أبا الحفظ . . إنها أمامى ، راقدة فى فراشى ، أجمل من القمر . . لا طبعاً ، إنها فى غيبوبة المخدر . . لا يهمنى اسمها . . المهم أنها هى التى ترقبتها شهوراً . . كل ماعرفته منها أنها طالبة فى كلية الحقوق . . لا ، لا ، لا . . اسمع ! . . لقد وعدتك بأن أعطيك الفرصة لتراها . . يمكنك أن تحضر بعد ساعة ، أكون قد فرغت منها ، وتكون هى قد أفاقت من المخدّر ، فتسلّم عليها ثم تنصرف وحدك ، لأحملها بعد ذلك إلى بيت أسرتها . .

ثم مداعباً ، بلهجة من يريد أن ينهى المكالمة :

– المدة انتهت ياحافظ ، بلغة بنات مصلحة التليفونات . . ولاتقلب

لى دماغى ، الله يقلب دماغك . . فيما بعد يا حافظ . . فيما بعد . . مع السلامة .

وأعاد السماعة إلى حاملها ، ثم رفعها عنه ثانية ، ووضعها قريبة من آلة التليفون ، حتى لا يزعجه الجرس ، إذا ناداه أحد معارفه . .

اقترب من الفراش ، وجلس على حافته ، وبدأ ينزع عنها ثوبها . .

ألقى الثوب جانباً ، فأصبحت بقميصها الحريرى الناصع المشغول والمنهدة من تحته تحرس الثمرتين الدافئتين الشهيتين . .

ورفع عن أنفها منديله المبلل بالمخدر ، فوضعه بجانب المسرة ، وبدأ ينزع بقية ثيابه . .

الصمت مطبق ، كما لو كانت الغرفة كهفاً قريباً من إحدى قمم الهيمالايا ، لم تطأه قدم بشر من قبل . .

وجحظت عيناه وقد بلغت به الرغبة حد الشبق ، ولو نظر إلى المرآة فى هذه اللحظة ، لأنكر وجهه الذى يطالعه فى صقالها ، ولفزع منه . .

إنه ليس وجهه . . إنه وجه قرد !

الصمت لا يزال طبقاً ثقيلاً رهيباً ، فهناك عذراء سيُسفَح دمها غيلة بعد لحظات . . ولو مشت نملة على الجدار ، لفضح الصمت الثقيل الرهيب صوت احتكاك أرجلها الدقيقة بسطح الجدار !

ألقى عبد الحميد فى جوفه جرعة من خمر ، تضمها قارورة قائمة على مرتفع قريب من خزانة الملابس . .

واقترب من الفراش . .

الثمرة الشهية ، التى تمنّاها واشتهاها شهوراً . . هاهى ذى دانية ،

فى متناول يده ، تنتظر القطاف . .

اقترب من الفراش أكثر . . ونزع ساعته الثمينة من حول معصمه ووضعها جانبًا ، وركع على ركبتيه ملتصقاً بحافة السرير . . ورفع قميصها عن فخذيها أكثر ، وراح يتأمل فتنتها ، ويملأ عينيه الشرهتين منها ، ولو ملك أن يأكلها لحماً ودماً وعظماً ما توانى لحظة . .

* * *

وقام من ركعته وقد تهيأ ليهم بها . . بعائدة . . بنت الثالثة والعشرين . . طالبة السنة النهائية بكلية الحقوق . . وحيدة أبويها وأملهما من الحياة . . رجاؤهما وقرة عيني كل منهما . .

ولكنه فجأة . .

فجأة ، وقبل أن يقربها ، أحس برعب قاتل . . خيل إليه أن الدم قد توقف وتجمد فى عروقه ، وأن حركته قد شُلَّت عندما جاءه – من خلفه – صوت آمرٌ ، خشن :

– عندك !

انتفض كلولَب من الصلب القوى ، وقد جف حلقه . . والتفت إلى ورائه . .

وجده منتصباً أمامه كالهول . .

شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، شعره خليط من الأسود والأبيض ، يعلو جبيناً عريضاً ، وحاجبين سوداوين غزيرين فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . . رداؤه السواد من قطعة واحدة ، وقد دس كفيه فى قفازين من لون ردائه . . واضح الملامح ، حاد التقاطيع ، صارمها كأنما لم تطف

البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، وحتى هذه اللحظة التعسة السوداء فى حياة عبد الحميد ، الذى أسرع فتمالك نفسه ، واسترد رباطة جأشه ، وهو يصرخ بالغريب الواقف أمامه :

– من أنت ؟ . . وما الذى أتى بك إلى بيتى ! . . وماذا تصنع هنا ؟

استعرضه الزائر الدخيل بنظرة قاتلة ، مسحته من رأسه إلى قدميه ، دون أن يفتح فمه بكلمة . فصرخ به عبد الحميد :

– تكلم ! . . من أنت ؟ . . وماذا تفعل هنا فى بيتى ؟

أجابه الشاب فى هدوء قاتل :

– أنا لص . . دخلت بيتك من الباب الخلفى لأسرق . . بعد دقيقة من دخولى ، سمعت المفتاح يدور فى ثقب الباب ، وأضىء نور الردهة الخارجية ، فأسرعت بالاختباء خلف هذه الستار . . رأيتك تدخل وتلقى بهذه الفتاة على فراشك ، وتضع على أنفها المنديل المخدّر حتى لا تفيق أثناء حديثك التليفونى . . وسمعت محادثتك البذيئة ، كلمة بكلمة . . ثم شاهدت ما أنت مقبل عليه ، وأنا مختف خلف الستار ، فأحسست وأنا لص – بأننى أشرف ، وأكبر ، وأعظم بكثير مما كنت أظن بنفسى . لأننى لم أكن أتصور أن هناك لصوصاً بهذه القذارة التى تتمتع بها سيادتك يا أخسّ نذل فى هذا العالم !

ثم صرخ به فى احتقار شديد : ابتعد عنها يا أفندى . . يافضيحة الأفندية ومعرتهم ! »

ولم يكد اللص ينتهى من عبارته ، حتى عاجله عبد الحميد بلطمة هائلة مفاجئة ، وهو يقول : « سأسجنك يالص يا ابن الـ . . . . . . »

سأسلمك للشرطة حالاً ! »

ولكن اللص ردّ له اللطمة بمثلها . . بل إنها كانت أكثر إيلاماً . . ولكن عبد الحميد فارع الطول ، عريض المنكبين ، قوى يمتلئ صحة وعافية ، فتلقى اللطمة التى ردها إليه اللص فى ثبات ، ثم عاجله بلكمة إلى فكه ، أتبعها بأخرى إلى بطنه . .

كان واضحاً أنه أقوى من اللص ، وأن الغلبة ستكون له . . ولكن اللص استمات حتى يواجهه ويحتضنه ، فلا يفطن عبد الحميد لما سيفاجئه به . . وعبد الحميد مستمر فى توجيه لكماته القوية إلى جنبي اللص ، وبطنه ، وعموده الفقرى يحاول أن يحطمه بقبضته ليسقط عاجزاً بلا حراك . . ولكن هذا استل من خصره خنجراً ماضياً ، غرسه — بكل ما فى ذراعه المفتولة من قوة — فى قلب غريمه ، الذى صرخ صرخة واحدة خافتة ، سقط على أثرها على الطنفسة[1] والخنجر غائص فى قلبه . .

شد اللص قامته ، ورفع رأسه ، وشهق شهيقاً عميقاً ملأ صدره بالهواء ، ثم زفره بسرعة ، وأسرع إلى خزانة الملابس ففتحها وكان المفتاح فى ثقب بابها — فالتقط ما وجده أمامه بداخلها من أشياء صغيرة ثمينة ، دسها فى جيبه ، ثم استدار إلى جهة عبد الحميد . . الذى كان راقداً والخنجر مزروع فى صدره ، كما لو كان سارية مركب تغرق فى بحر من الدم !

عينه اللماحة التقطت ساعة عبد الحميد ، التى خلعها — قبل أن يهمّ بعائدة — وألقى بها قريباً من الفراش ، فأخذها بهدوء ، ووضعها فى أحد جيوبه . .

---

(١) الطنفسة هى السجادة — « معجم الفاظ الحضارة » : محمود تيمور

العين اللماحة – ذاتها – بهرها بريق حجر من الماس فى حجم البندقة المقشورة ، يزيّن خاتماً يحيط بأحد أصابع عبد الحميد ، فانحنى . . وبأصابع خبيرة مدربة سحب الخاتم من حول أصبع عبد الحميد ، وأضافه إلى مافى جيوبه . .

واتجه إلى السترة المعلقة على مسند المقعد القريب من الفراش ، ودس يده فى جيبيها الخارجيين . . فى الجيب الأيمن لم يجد شيئاً يهمه . . ولكن يده خرجت من الجيب الأيسر بسلسلة قصيرة غليظة ثقيلة من الذهب الخالص ، تنتهى من أحد طرفيها بمفتاحين صغيرين ، أدرك من فوره أنهما مفتاحا سيارة . . وفى طرفها الثانى تنتهى بعلبة من الذهب الخالص أيضاً ، وبداخلها مصحف صغير !

فك المفتاحين من الحلقة التى تضمهما ، ووضعهما جانباً ، واحتفظ بالسلسلة ، وهو يقول مخاطباً ضحيته الغارقة فى دمها :

– وتحمل مصحفاً يا ضلالى يا مفترى ! ! صحيح . . من « اختشوا » ماتوا !

ومد يده إلى أحد جيبى السترة الداخليين ، فخرجت بقلم من أقلام الحبر الثمينة النادرة ، أما الجيب الثانى ، فقد كان مسك الختام . . لقد خرجت يده منه برزمتين ضخمتين من الأوراق المالية ، من فئة العشرة الجنيهات ، أدرك من فوره أن كل رزمة منهما تضم ألفاً من الجنيهات » هكذا كان مكتوباً على كل منهما ، فأسرع بإخفاء إحداهما فى جيب سرواله الأيمن ، والثانية فى الجيب الأيسر . .

* * *

اتجه اللص نحو « عائدة » ، وهو يقبل أصابع يمناه ظهراً لبطن ، ويقول لنفسه : « رضا وسيدنا النبي . . رضا ! »

فى هذه اللحظة ، بدأت عائدة تفتح عينيها ، وهى لا تزال راقدة فى الفراش ، لا تشعر بما جرى حولها من هول . .

فى الثوانى الأولى لصحوتها وعودتها لوعيها ، كانت تفتح عينيها وتغمضهما فى لمسات سريعة خاطفة ثم فجأة ، فتحت عينيها تماماً ، وإذابها أمام رجل غريب عنها . . رجل تراه لأول مرة . . رجل – أوشاب – فى نحو الثلاثين من عمره . . شعره خليط من الأبيض والأسود ، يعلو جبيناً عريضاً ، وحاجبين سوداوين غزيرين ، فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . .

– رداؤه السوادمن قطعة واحدة ، وقد دس كفيه فى قفازين من لون ردائه . .

وجهه واضح الملامح ، حاد التقاطيع ، صارمها كمن لم تطف البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، حتى هذه اللحظة التعسة من حياة « عائدة » . .

ارتسم الفزع على وجهها ، وأطل من عينيها الصافيتين ، يكاد يذهب بصفائهما ليلونهما بلونه . . هل للفزع لون يميزه كما لو كان من الماديات التى يمكن أن تتلوّن بألف لون ؟ ؟

وهمّت بأن تصرخ ، ولكن اللص وضع أصابعه على شفتيها بلطف شديد ، وهويقول : « أرجوك . . إنى أحاول أن أسترك وأخلصك من فضيحة مؤكدة » .

سألته فى صوت كأنه آت من أصابع قدميها : « من أنت ؟ » .

أجابها ببساطة متناهية :

– بدون أن تنزعجى . . أنا لص !

– لص ؟ !

– لاداعى للفزع . . لقد أرسلتنى العناية لأخلصك من هذا الحيوان ، فى اللحظة المناسبة ، قبل أن . . .

وأمسك اللص قليلاً ، ثم قال بصوت حزين : « ثلاثة بالله العظيم . . أنا لص ، إنما أشرف منه ألف مرة ! »

ولاحت منها التفاتــة إلى « عبد الحميد » وهو راقد على الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة ، والتى تشرّبت دماءه التى نزفها والخنجر مغروس فى صدره ، يحكى قصة نهايته المؤسفة . . وكادت تصرخ ثانية ، ولكن اللص ناشدها بقوله :

– اعملى معروفاً . ليس لدينا وقت . . واحمدى الله على أن انتهت الليلة على هذا النحو . .

صعدت الدموع إلى عينيها وهى تقول :

– أنا بريئة . . كنت مخدَّرة . . خدّرنى فى سيارته . . .

– استطعت أن أفهم كل شىء، وهو يتحدث إلى حيوان مثله تليفونيًّا ، ولهذا صممت على إنقاذك من شره ، والحمد لله على نجاتك وسلامتك . . هيا وبسرعة . أرجوك . . أدخلى فى ثوبك ، إذ يجب أن نخرج من هنا فى دقيقة ، لأن صديقه سيحضر ليراك وليسلم عليك ، كما سمعته يقول . . والوقت يجرى بسرعة

وأولاها ظهره ، وراح يتفحص محتويات الغرفة بعينيه ، فقد يجد ما يستطيع ضمه إلى مسروقاته .

مرت عايدة بأصابعها فوق جبينها ، تحاول أن تزيل آثار الغيبوبة التي كانت غارقة فى ضبابها ، ثم ارتكزت بكفها على حافة السرير المصنوع من الخشب الفاخر . . وتحاملت على ساقيها ، وهبّت – دفعة واحدة – واقفة . . وأسرعت فارتدت ثوبها فى ثوان ، ودست قدميها فى حذائيها ، وكان عبد الحميد قد نزعهما منهما . .

فى هذه الأثناء ،لاحت من اللص نظرة إلى المنديل الذى يخفى بين طياته قطعة القطن المبللة بالمخدر ، وكان عبد الحميد قد ألقاه قريباً من الفراش ، عندما بدأ يهمّ بعائدة . . فالتقطه ووضعه فى أحد جيوبه ، وهو يقول : « منديل الحلو . . توحة تربط به رقبتها ، أو رأسها ، عند اللزوم ! »

والتفت إلى عائدة يسألها : « جاهزة ؟ »

– جاهزة . . من أين سنخرج ؟

– من الباب الخلفى للفيلا . . تفضلى بمنتهى الهدوء

– هل تخرج معى ؟

– وهل أتركك هنا ؟ . . إننى أريد أن أؤمن طريقك وسلامتك ، ولو كلفني هذا حياتى . . ثم أتركك فى العمران ، لتركبي أول « تاكسى » يقابلك .

أطرقت برأسها وهى تهمس فى مرارة أليمة :

– تاكسى ؟ ! . . لعنة الله على كل سائق تاكسى لا يقف لمن يشير له بالتوقّف ، إذا كانت السيارة التى يقودها خالية من الراكبين .

سحبها اللص من يدها برفق ، واتجه بها إلى باب الغرفة ، فبارحاها إلى ردهة المسكن .

لم تفطن عائدة — وهى تحت وطأة إحساسها المرير بالضياع — إلى أنها تركت حقيبة يدها سهواً ، حيث وضعها عبد الحميد عندما دخل حاملاً إياها على ذراعيه . .

همس اللص فى أذنها : « سنتجه إلى المطهى ، لنخرج من الباب الخلفى للفيلا » .

هزت رأسها إيجاباً ، دون أن تفتح فمها بكلمة .

فجأة . . أزّ جرس الباب فى ردهة المسكن ، وهما فى منتصفها . .

أحست كما لو كانت قطة صغيرة ، أحاطت بها مجموعة من الكلاب الضخمة الشرسة المدربة . . الرعب يحاصرها . . يسكن كل خلية من خلايا جلدها ، فيجعلها تحس بأن ساقيها أعجز من أن تحملا جسمها ، وأنها ستسقط عجزاً وضعفاً وإعياء !

وأحس اللص بما تعانيه ، فجذبها من يدها بسرعة نحو المطهى ولكنها استوقفته دون كلمة منها ، وهى تدق صدرها بكفها فى ضربات سريعة متلاحقة ، وقد رسم الهلع تهاويله على قسمات وجهها الدقيقة .

سألها بعينيه سبب توقفها ، بينما جرس الباب يجلجل بصورة شبه مستمرة فى ردهة المسكن ، فهمست فى رعب قاتل كأنها تستغيث :

— حقيبتى . . نسيتها فى الداخل !

أشار لها لتسبقه إلى المطهى ، وأن تنتظره بداخله دون أن تضئ نوره وأسرع عائداً فى خفة الفهد إلى غرفة النوم . . ولم يغب بداخلها أكثر من ثانيتين ، عاد بعدهما إليها يحمل حقيبتها ، فسلمها إياها ، ودفعها نحو الباب المفضى إلى الجزء الخلفى من حديقة « الفيللا » . وخرجا فى هدوء ،

ورنين جرس الباب يصل إليهما من بعيد . .

* * *

الظلام شامل ، فإن الليل قد أقبل . .

وأحس اللص بأن صاحبته الصغيرة تتعثر فى خطواتها ، فأمسك بساعدها فى رفق ، وهو يهمس لها :

– اجمدى ، ولا تخافى ! . . هذا هو الباب الخلفى للحديقة .

وخرجا إلى أرض فضاء واسعة غير مرصوفة ، يبدو واضحاً أنها لاتزال تحت التخطيط والتقسيم وشق الشوارع . .

قالت ترجوه : « أرجوك ! »

– رقبتى !

– لا تتركنى قبل أن نصل إلى النور والناس والعمران .

أجابها مؤكداً ، بصوت حاول كل جهده أن يشيع بنبراته الطمأنينة إلى نفسها : « لاتخافى . . سأدافع عنك بحياتى ، حتى تطمئنى إلى ضمان وصولك البيت سالمة » .

تصاعدت الدموع إلى عينيها ، وهى تقول : « لا أعرف كيف أشكرك »

– لا شكر على واجب محتوم الأداء على أى رجل شريف .

– إنك أنقذتنى من عار الأبد . . وقفت إلى جانبى وقفة كبيرة ، ولا أدرى كيف أرد جميلك !

أجابها فى إيمان عميق ، أثار دهشتها أن يصدر عن لص لا مانع لديه من أن يقتل . . إذا اضطر للقتل .

– كله باق ! . . يبقى لى فى ابنتى التى لم تتم من عمرها العام الثالث . .

ألا يجوز أن تتعرض ، عندما تكبر وتصبح شابة ، لمثل ما تعرضت له الليلة ؟ . . حتماً ستجد إذ ذاك من ينقذها كما أنقذتك . . الله لا يتخلى عن الضعفاء أبداً . . وكله بثوابه !

ثم أردف بصوت باسم ، كأنه يسخر من نفسه : « ومن يدرى ؟ ! . . ألا يجوز أن تقفى إلى جانبي يوماً ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أولك أن نتكهن به الساعة ، وبذلك تردين لى ما تعتقدين أنه جميل قدمته لك ؟ . . كل شيء جائز يا بنتى ، ولا تستبعدى شيئاً ! » .

سألته بعد لحظات ، وهما يغذان السير فى الطريق المظلمة :

– تقول . لك طفلة ؟

ابتسم حناناً – فى الظلام – وهو يقول :

– رشا . . اسمها رشا . . تتم ثلاثة أعوام بعد شهر .

– حلوة ؟

– قمر . . أصل أمها قمر !

– توحة ؟

– من أين عرفت اسمها ؟

– سمعتك تقول ، وأنت تأخذ المنديل : « توحة تربط به رقبتها أو رأسها عند اللزوم » ، قلت لنفسى لابد أنها زوجته . .

– كما أنقذتك الليلة بمعركة ، تزوجت « توحة » بمعركة .

– كيف ؟

– كنت عائداً فى نحو الثالثة صباحاً ، من بيت فى شارع الأهرام ، بعد انتهائى من عملية ناجحة . . الدنيا صيف ، والجو جميل . . سكون

مريح لأعصاب من يمتهن مهنتى المقرفة . . المزاج معتدل أربعة وعشرين قيراطاً . . وفجأة ، سمعت صراخاً خلفى ، فالتفت . . وإذا بى أمام سيارة « تاكسى » ، يحاول سائقها والراكبان معه — والثلاثة من خنافس هذه الأيام — رأيتهم يحاولون إرغام فتاة على الركوب معهم . . الفتاة تقاومهم مستميتة ، وهم لا يتركون لها فرصة للإفلات منهم . . يا أولاد الأبالسة ! ! . ثلاثة رجال ضد بنت واحدة ؟ ! . . فار الدم فى عروقى . . زاده فوراناً أن رأيت أحدهم يهوى بلطمة قوية على خد البنت ، فهوت أرضاً فى شبه إغماء . . انتهز الآخران هذه الفرصة ، وتعاونا على حملها لإدخالها السيارة ، فأسرعت إليهم وقد لبست القبضة الحديدية فى أصابعى. كنستهم فى نصف دقيقة . !

وضحكت عائدة للتعبير . . وأكمل هو قصته :

— طبعاً كنستهم . . لم يتحمل الواحد منهم أكثر من ضربة لا ثانية لها . . واحد منهم تهشمت عظمة أنفه ، والثانى فقد أسنانه الأمامية ، أما الثالث فقد مزقت القبضة الحديدية فكه الأيسر . .

أحست عائدة بالرعب وهى تلهث وراء حديثه ، فقالت بصوت مأخوذ : « يا ساتر ! . . » .

— ألا يستحقون ؟

— طبعاً يستحقون .

— البنت روت لى قصتها ، ونحن فى الطريق إلى بيت أسرتها ، باختصار شديد . . كانت عائدة من بيت خالتها ، التى توفيت قبل قليل بين يديها . . بيت خالتها فى « الطالبية » ، وبيت توحة وأمها عند « نصر

الدين » . . مسافة ! . . البنيَّة تركت خالتها بعد أن توفيت ، وأسرعت سيراً على قدميها لتخبر أمها ، شقيقة المتوفاة . . أمها لم تكن قد ذهبت معها من بادئ الأمر ، لأنها هى الأخرى مريضة ، وراقدة فى فراشها . . هم ثقيل بعيد عنك ! . . وفى الطريق ، اعترضها أولئك الثلاثة الخنافس ، وحاولوا خطفها . . كأنها ناقصة هم ! . . والباقى رويته لك .

– وبعد ؟ . . كيف تزوجتها ؟

– البنت مسكينة وعلى قد حالها . . التفتت نحوى فجأة ، وهى تبكى ، وسألتنى إن كنت أتزوجها . . البنت حلوة ، صغيرة . . ويتيمة الأب ، كما علمت منها . . ولكنى أشفقت عليها أن تواجه حياة شاقة مع مثلى ، فصارحتها بكل شئ .

سألته عائدة : « ماذا قلت لها ؟ »

– إننى لص . . وسألتها أتتزوجين لصًّا ؟

– يعنى . . لم تخفِ عنها حقيقتك !

– لو أخفيت عنها ما عشنا معاً أكثر من أسبوع . . قبلتنى كما أنا !

– ماذا قالت لك ؟

– إنها أحبتنى بعد أن أثبتّ لها – ورأت بعينيها – أننى رجل ، وأننى دافعت عنها وعن عرضها ، وعرّضت نفسى لأن يتكاثر علىّ ثلاثة يفتكون بى ومع ذلك لم أهتم بهم وتغلبت عليهم وفروا أمامى وأمامها ، برغم الخرافة الشائعة التى تقول إن الكثرة تغلب الشجاعة !

– وتزوجتها . .

– وأنجبنا « رشا » . . وكل أملى أن يساعدنى الله على أن أؤمن لها مستقبلها .

وأجابته عائدة وهى تتأمل – فيما بينها وبين نفسها – هذه الشخصية الغريبة : « سيساعدك الله بإذنه ! » .

وكانا قد قطعا المسافة الخلاء ، وبدأت أنوار حى الدقى تكشف لهما الطريق ، فقال لها : « سنفترق هنا » .

نظرت إلى عينيه ، وهى تقول : « شكراً » .

– سأقف بمبعدة منك ، وكأن أحداً منا لا يعرف الآخر ، إلى أن يتعطف أحد سائقى « التاكسى » فيقف لك ، ليحملك إلى البيت . . ألا يجوز أن يتعرض لك أحدهم وأنت واقفة ؟

– أشكرك مرة أخرى .

– وأنت تفتحين باب السيارة ، احفظى الرقم المكتوب عليه فى ذاكرتك ، لأنى لن أستطيع قراءته من مكانى هنا .

– هذه نصيحة غالية سآخذ بها . . وأشكرك من كل قلبى .

– النصيحة فيما سأقوله لك ، فأرجو أن تستمعى لى جيداً !

– تفضل !

– لا تركبى مع أحد بعد اليوم ، ولو قرأت فى بطاقته الشخصية – أمام خانة المهنة – أنه نبى . . فلسنا فى عصر الأنبياء ، والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو» أو « المرسيدس » . . كلهم ذئاب ، ولا أهين الكلاب فأشبهها بهؤلاء الناعمين ، الذين يفتحون أبواب سياراتهم الفاخرة لأى جميلة ، وكل جميلة ، مرتدين قميص المروءة ، عارضين حملها إلى حيث تريد ، بينما هم يبيّتون لها ما كان سيحل بك الليلة . . لا أشبّه هؤلاء بالكلاب ، فالكلاب أنظف وأشرف وأعفّ منهم ألف مرة . . فلا تركبى

مع أحدهم مهما كانت الحاجة ملحة للانتقال من مكان إلى مكان . . لا تركبي . . لا تركبي . . لا تركبي !

– صدقت ، هذه المرة كانت الأولى . . وستكون الأخيرة .

– مع السلامة ، والله يتولاك ويسترك !

٦

عائدة تكاد لا تصدق أنها وصلت إلى بيت أسرتها – فى حى « جاردن سيتى » – بعد أحداث هذه الليلة السوداء !

لا تصدق أنها تجلس إلى مائدة العشاء بين أبويها ، وإن لم تأكل غير قطعة من تفاحة . . قطعة صغيرة من تفاحة .

قال لها والدها : « لم تتناولى عشاءك يا عائدة ! »

جاهدت لترسم على شفتيها ظل ابتسامة ، وهى تقول : « لا أحس بقابلية للطعام الليلة » .

وقالت لها أمها : « اكملى تفاحتك يا حبيبتى ! » .

هزت عائدة رأسها كمن يحس وعكة – مثلا – دون أن يدرى سببها ، واجابت : « لست قادرة يا ماما » .

ومست كوب اللبن بشفتيها ، وشربت منه بقدر مايشرب العصفور ، ثم ردته إلى سطح المائدة ، وهى تستأذن للقيام للنوم ، فسألها والدها بحنانه البالغ :

– عائدة . . هل أنت مريضة ؟

أبداً . . مرهقة بعض الشئ

وسألتها أمها : « هل أحضرت كراسة المحاضرات من زميلتك ناهد ؟ ».

– أحضرتها . وسأحاول الآن أن أنسخ منها بعض ما فاتني خلال الأسبوع الذي انقطعت خلاله عن المحاضرات ، وإن أحسست بأنني متعبة ، فسأنام فوراً ، وأرجيء النسخ لوقت آخر .

وقبلت كلا من أبويها قبلة المساء ، ودخلت غرفتها ، وارتدت ثياب النوم ، ثم أطفأت النور الكبير ، بعد أن أضاءت المصباح الصغير القريب من فراشها . . ثم استلقت راقدة ، وبدأت رحلة عذاب ذهني وعقلي ونفسي مدمر . .

استعرضت ما حدث لها في ثوان ، فمر أمام عينيها كشريط تم تصويره في الجحيم ، بين زبانية يرقصون ويصرخون ، والنار من حولهم ومن فوقهم ومن تحتهم بحار . . بحار . . بحار . . .

بحار من النار لا نهاية لها ، ومع ذلك فهي لا تحرقهم ، وهم لا يتوقفون عن الرقص ولا يكفّون عن الصراخ .

هل ما حدث لها حقيقة ؟ !

هل كانت تحلم ، وأن ما تستعرضه الآن – وهي راقدة في سريرها ، مفتوحة العينين – ليس إلا من تهاويل ذلك الحلم المفزع ، الذي طاف بها ؟

مستحيل ! . . مستحيل أن يكون حلماً ما مرّ بها . . فهناك رجل استدرجها لتركب سيارته ، فخدرها وهي إلى جانبه . . رجل اسمه « عبد الحميد لطفي » . . وهناك لص أنقذها من اعتداء هذا الرجل عليها ،

وقتله فى سبيل ذلك . . وحذاؤها لا تزال بعض الأتربة عالقة به ، بعد أن مشت – ويدها فى يد اللص ، حرصاً منه عليها – مسافة طويلة فوق أرض مترية غير مرصوفة . . والمبلغ الذى سددته ، أجر « التاكسى » الذى حملها من مشارف مدينة المهندسين عائداً بها إلى البيت ، يختلف تماماً عن المبلغ الذى سددته من بيت أسرتها إلى بيت أسرة زميلتها « ناهد » ، فى شارع الجامعة بالجيزة ، لتستعير منها كراسة المحاضرات . .

هذا المبلغ يختلف عن المبلغ الآخر بفارق ملحوظ . . والمتبقى من النقود فى حافظة نقودها الصغيرة – بداخل حقيبة يدها – يؤكد هذا بصورة لا تقبل المناقشة . .

ليس حلماً – إذن – ما تعرضت له . . ولكنه حقيقة لاشك فيها . . حقيقة تقول إن هناك رجلاً قتل فى غرفة نومه ، وإنها كانت فى هذه الغرفة أثناء قتله ، والذى لاشك فيه أن اللص قد سرق ما وقعت عليه عيناه . . فهل هناك ما يقود إليها ؟

إنها لم تترك أثراً

لم تنس شيئًا من أشيائها ، فهى لم تكن تحمل غير حقيبة يدها . . وكراسة المحاضرات الخاصة بزميلتها ناهد بداخل هذه الحقيبة ، والله ألهمها أن تتذكر فى اللحظة الأخيرة أنها تركت الحقيبة سهواً فى غرفة الجريمة . . ولقد أسرع اللص فأعادها إليها ، وهاهى ذى الحقيبة أمامها ، وكراسة ناهد بداخلها . . كما أنها لم تلمس شيئاً من محتويات الغرفة يمكن أن يقود المحققين إليها عن طريق بصماتها . .

إنها لم تفعل شيئاً . . فهى بريئة . .

أكثر من هذا أنها مجنى عليها ، فقد حاول أحدهم الاعتداء عليها باغتصابها ، وخاب أثر الجريمة لسبب خارج عن إرادته – كما توصف الجرائم عادة – بأن تعرض له آخر ، فحال بينه وبين ارتكاب جريمته ، ثم انتهى الخلاف بينهما إلى قتله . .

هل يتصور عاقل أن تقتل فتاة مثلها – لاتزن أكثر من اثنين وخمسين كيلو جراما – رجلاً لا يقل وزنه عن الثمانين ، يمتلئ صحة وعافية وشباباً وقوة ؟ . . هل يتصور عاقل أن تقدم فتاة مثلها على مثل هذه الجريمة ، لتسرق ما لا شك فى أن اللص قد سرقه وهى تحت تأثير المخدر؟

راحت تفتش عما قد يبعث الطمأنينة إلى نفسها ، وفى كل مرة ينتهى بها هذا التفتيش إلى استحالة قيام الشبهات حولها ، ففيم القلق ؟

فيم القلق يا عائدة ؟ . . نامى واطمئنى !

* * *

ومع ذلك فهى لا تنام . . لم تنم حتى الصباح ، وسؤال واحد يلح عليها : ماذا حدث عندما اكتشفت الجريمة ؟

الذى لاشك فيه أنها اكتُشفت قبل أن تصل هى إلى بيت أسرتها ، فإن زائراً – يجوز أنه صديق المقتول ، الذى حدثها اللص عنه فقال إنه فى الطريق لزيارته – كان يضغط الجرس ، وهى فى ردهة المنزل ، فى طريقها واللص معها إلى المطهى ، ليخرجا منه إلى الحديقة ، ومنها إلى الخلاء . .

وهذا الزائر – أو الصديق – لاشك فى أنه سأل البواب عن سيده ، فأفاده بوجوده داخل المسكن . . ومن المؤكد أن نور الغرفة كان يتسلل

من خصاص نوافذها – إلى مَنْ فى الحديقة ، ليؤكد أنّ صاحب المسكن بداخله . .

ومن المؤكد أيضاً أن الطارق ، أوالزائر ، أوالصديق ، قد رابه – والبواب معه – أن صاحب البيت لا يفتح ، فتحايلا على الدخول بأية وسيلة ، فدخلا وإذا بهما أمام ذلك المنظر المروع . .

رب البيت مقتول . . فارقته الحياة . . الخنجر مغروس فى صدره ، والدماء بدأت تتجمد على جسمه وعلى الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة .

فماذا بعد ذلك ؟

إنها لا تدرى !

وكان لابد لليل أن ينتهى ، وأن يأتى الصباح ، ومعه الحياة والحركة والجرى والسعى والدأب بلا توقف . . عجلة اسمها الحياة ، ما فتئت تدور منذ الخليقة ، وحتى هذا الصباح الأصفر ، الذى لا تدرى عائدة شيئاً عما سيسفر عنه من أنباء وأحداث ومفاجآت . .

كان الصباح صباح يوم جمعة . . يوم عطلة رسمية ، فأعفاها هذا من مقابلة ومواجهة زميلاتها وزملائها وأساتذتها فى الكلية ، فإنها لم تكن مهيّأة للاختلاط بهم وبهن ، كما اعتادت فى حياتها اليومية معهم جميعاً .

جلست إلى مائدة الفطور مع أبيها وأمها كعادتها ، وراحت تحسو من كوب اللبن أمامها ببطء ، وهى تبدو كمن تنظر إلى لا شيء .

وضعت الأم فى صفحة ابنتها بيضة مقشورة ، ساخنة لامعة ، وهى تقول :

– كلى يا عائدة . . إنك لم تتناولى عشاءك أمس ، فنمت جائعة . .

ووضعت إلى جانب البيضة المقشورة شريحة من الجبن « الروكفور». ثم شريحة من الزبد ، ثم ملعقتين من مربى النارنج ، ثم بضع زيتونات سوداء لا معة ، وهى تقول : « كلى يا عائدة . . كلى يا حبيبتى ! ».

وهمست عائدة ، وكأنها تبتعد عن أبيها وأمها بآلاف الأميال : «شكراً يا ماما ».

كانت عيناها على ظهر الصحيفة التى أمسك بها والدها ، وقد فرغ من تناول إفطاره . . كان يبدو كمن استغرقته القراءة ، وقد نسى أن ابنته فى مواجهته ، وأن أمها عن يمينه تتصدر المائدة . . هكذا تعودوا الجلوس – ثلاثتهم – إلى مائدة الطعام ، منذ كبرت عائدة وطالت قامتها واستطاعت أن تشارك أبويها مائدة الطعام . .

سألته زوجه : « ما أخبار البلد يا محمود ؟ . . هل من جديد ؟ ؛

نحىّ الزوج الصحيفة عن وجهه ، ووضعها جانباً ، وهو يقول :

–لا جديد تقريباً ، ولكن هناك حادثاً فظيعاً . . غريباً وفظيعاً معاً !

تشاغلت عائدة بكوب اللبن بين أصابعها ، تحسو منه ببطء شديد ، بينما اهتمت والدتها بالاستفسار عن هذا الحادث الغريب الفظيع ، الذى يتحدث زوجها عنه

–شاب ثرى . . وجدوه مقتولاً فى مسكنه ، عند أطراف مدينة المهندسين .

– يا ساتر يارب !

قالتها الأم مشفقة ومستنكرة معاً ، وأضافت : الناس ضلّت . . أو جنّت ! ».

رفعت عائدة عينيها عن كوب اللبن الذى أمامها ، وهى تسأل والدها فى هدوء :

– وما وجه الغرابة فى الحادث ؟ . . إننا نقرأ فى الصحف كل يوم تقريباً أكثر من نبأ عن مقتل إنسان فى بيته .

رفع والدها فنجان القهوة إلى شفتيه ، ورشف منه رشفة صغيرة ، وهو يبتسم مجيباً ابنته :

– الغرابة فى هذا الحادث أن القاتل ، قاتلة . . أعنى فتاة !

– يا مصيبتى ! . .

قالتها الأم وهى تضع كفها على صدرها ، كمن لا تستطيع أن تصدق . .

– بنت تقتل رجلاً ؟ !

– إنها بكل تأكيد ليست بنتاً عادية ، بالمعنى المفهوم لنا يا فوقية . . فمن المؤكد أنها عاهر محترفة ، خطرة مدربة ، بدليل أنها قتلته . . ومعنى هذا أنها كانت مسلحة بالخنجر الذى استعملته فى ارتكاب الجريمة . . ثم أنها سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب بعض النفائس من جواهر وغيرها . . .

– وكيف عرفوا هذا ؟

– ناظر زراعته قال فى التحقيق إنه كان يحمل ألفى جنيه ، تسلمها من أحد تجار الفاكهة ثمناً لثمار حديقة البرتقال . .

عائدة تستمع لحديث والدها ووالدتها ، ودقات قلبها تزداد سرعة ، وكأن كل دقة منها تحاول أن تسبق التى قبلها . . والدم فى عروقها يكاد يغلى . . يتمدد بسرعة الزئبق فى مقياس للحرارة وضع فى فم مريض تفتك الحمى بجسمه ، وإن هى إلا درجة أو درجتان حتى ينفجر المقياس

حتما ويقفز الزئبق من أنبوبته الشعرية الدقيقة .

وأحسست بأن عليها مشاركة والديها الحديث ، حتى تبدو طبيعية وغير منعزلة عنهما ، فلا يثير صمتها شبهة ما . . فقالت : « الجريمة كانت بدافع السرقة اذن . . ؟ » .

أجابها والدها : « الصحف لم تذكر التفاصيل كاملة ، وإن كان واضحاً أن السرقة كانت هدف القاتلة » .

– هل كانت على صلة بضحيتها ؟

– شهادة البواب تفيد بأن سيده كان فى مزرعته منذ الصباح ، ثم عاد قبل منتصف السابعة مساء بقليل ، يحمل على ذراعيه فتاة غائبة عن الوعى ، فدخل بها مسكنه . . وبعد نحو ساعة ، جاء لزيارته صديق من أقرب أصدقائه إليه ، اسمه حافظ ، فضغط جرس الباب أكثر من مرة ، دون مجيب . . فانضم إليه البواب مؤكداً أن سيده بالداخل ، فلما لم يفتح لهما الباب برغم ظهور نور غرفة نومه من خصاص إحدى نوافذها رابهما الأمر ، فاقترح البواب على صديق المجنى عليه أن يصحبه إلى الباب الخلفى للفيلا ، ليدخلا منه ، فهو يحمل مفتاحه . . وعندما دخلا ، وجدا صاحب البيت مقتولاً بطعنة خنجر ، والخنجر مغروس فى صدره ، لم ينزعه القاتل بعد أن طعنه ، وقد تجمدت الدماء التى سالت منه على جسمه وعلى الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة . . .

وسألت عائدة والدها فى هدوء : « والصديق . . ماذا قال ؟ » .

– قال شيئاً غريباً جداً فى التحقيق . . كان لصديقه المقتول طريقة مخزية للإيقاع بالسيدات أو بالفتيات اللواتى يرقن له فى الطريق . .

فينتهز فرصة ندرة سيارات « التاكسى » ، وطول انتظار السيدة أو الآنسة لسيارة تحملها إلى بيتها – أو إلى حيث هى ذاهبة – فيتقدم منها بسيارته الفاخرة ، عارضاً عليها بكل أدب واحترام أن يحملها إلى حيث تريد . . وفى الطريق يخدرها عن طريق الشم ، ثم يسرع بها إلى بيته ، حيث يعتدى عليها ، وهى تحت تأثير المخدر . . وقد أيد البواب أقوال صديق سيده . . .

هتفت الأم مولولة : « يا مصيبتى ! ! » .

ووجدت عائدة ما تقوله ، دون أن يثير قولها ريبة ما :

– هو إذن يستحق . . وقد نال جزاءه !

وضحك الأب وهو يقول : « أنا شخصياً لا أستبعد أن تكون القاتلة إحدى ضحاياه ، إذا استبعدنا أنها من محترفات الجريمة . . اعتدى عليها مرة ، فبيتت له نية الانتقام منه ، إلى أن واتتها الفرصة ، فلم تدعها لتفلت منها »

سؤال كان يلسع طرف لسان عائدة ، وهى تتردد فى إلقائه على والدها . كانت تحس بأنها كمن يسير على حبل مشدود بين ارتفاعين شاهقين ، وأن أية كلمة تخرج من فمها دون أن تكون محسوبة حساباً دقيقاً ، ستكون بمثابة الخطوة غير المحسوبة لمن يسير على هذا الحبل المشدود بين الارتفاعين الشاهقين ، فتكون فيها نهايته !

سألت والدها فى هدوء ، وهى تضع بطرف السكين بعض الزبد والمربى فوق كسرة من الخبز :

– ألم يلتقطوا بصمات للقاتلة يمكن أن تقودهم إليها ؟

وكانت الإجابة عن هذا السؤال أكثر ما يؤرق عائدة . .

طوى الوالد الصحيفة ، وقدمها لابنته ، وهو يقول :

– لا ذكر هنا للبصمات .

– ولكن البصمات مهمة .

قالتها وهى تتناول الصحيفة من والدها ، الذى أجابها :

– بلا شك . . ولكن لم يرد لها أى ذكر أوسيرة ، ومعنى هذا أن مندوب تحقيق الشخصية لم يلتقط أية بصمات تفيد التحقيق . . من الجائز أن القاتلة كانت تضع كفيها فى قفازين .

وأحست عائدة بأن ثقلا كثيباً كان يرزح فوق قلبها ونفسها ، وقد انزاح عنهما فجأة . . إنها تستطيع أن تتنفس . . وتذكرت أن اللص كان يضع كفيه فى قفازين ، ومعنى هذا أنه إذا كانت هناك أية بصمات ، فلن تكون إلا لها أوللقتيل صاحب المسكن . . ومادام مندوب تحقيق الشخصية لم يعثر على أية بصمات ، فليس لهذا غير معنى واحد . . أنها بعيدة عن الشبهات .

وفتحت الصحيفة وأبوها يقول لها : « فى صفحة الحوادث » .

وإذا بصورة « عبد الحميد » تطالعها – كما رأتها بالأمس على الطبيعة رأى العين – وهو ممدد على الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة ، وعيناه جاحظتان ، والفزع وألم الطعنة يلونان تقاطيع وجهه بتهاويل اللحظات الأخيرة لأى إنسان يلفظ حياته . . الخنجر مغروس فى صدره ، والدم متجلط حوله وعلى الطنفسة . . وإلى جانب صورة الجريمة صورة أخرى من صور عبد الحميد بثيابه العادية ، كأن الصحفى الذى قام بتغطية الحادث قد أراد أن يعطى قراء صحيفته فكرة – أو بالأصح – صورة أكثر

وضوحاً ، للثرى المقتول ، فطلب من أهله صورة عادية له ، لينشرها إلى جانب الصورة التى التقطت له بعد أن أجهزت عليه القاتلة . .

وهمست فيما بينها وبين نفسها :

– يا ساتر يارب . . أستغفر الله العظيم !

* * *

فى غرفتها ، انفردت عائدة بالصحف الصباحية الثلاث ، فى فراشها كعادتها صباح كل يوم جمعة ، وقرأت تفصيلات الحادث ، التى لم تخرج عما لخصه لها والدها وهما حول مائدة الإفطار . .

البواب – ومعه صديق عبد الحميد – رابهما أنه لم يستجب لصوت الجرس ، فلم يفتح الباب . .

أشفقا أن يكون قد وقع له مكروه

دخلا من الباب الخلفى للفيلا فوجداه مقتولاً . .

أبلغا قسم الشرطة ، فقام أحد الضباط لإجراء اللازم ، ثم أخطر النيابة ، فانتقل أحد أعضائها لمكان الجريمة ، حيث بدأ التحقيق .

٧

فى ذات اللحظة التى كانت «عائدة» تقرأ أنباء الجريمة ، وتقارن بين ما كتبته كل من الصحف الصباحية الثلاث وزميلتيها ، كانت هناك أكثر من سيدة وأكثر من آنسة يقرأن تفاصيل الجريمة ذاتها باهتمام أكثر

من أى قارئ آخر أو أية قارئة أخرى . .

إنهن ضحايا « عبد الحميد لطفى » ، اللواتى استدرجهن فى سيارته إلى مسكنه ، واعتدى عليهن بعد تخديرهن ، وآثرت كل منهن ابتلاع غصتها والسكوت على اغتصابها ، اتقاء فضيحة تهدم حياتها ، وتظل تطاردها وتتبعها كظلها إلى الأبد ، ولن يصدق أحد أنها ضحية ! .

ولكن زميلة لهن فى الهم ، كانت أكثر اهتماماً بالحادث من أيهن .

إنها « عصمت » . . آخر ضحاياه قبل أن يصبح هو ضحية مغامرته الأخيرة . .

الوحيدة التى واتتها الجرأة لتلجأ للنيابة العامة ، دون أن تعبأ بفضيحة لا مفر منها ، وإن كانت فى حيّز محدود . حيز أفراد أسرتها وهيئة التحقيق بعد أن التمس خالها من المحقق أن يكتم الأمر عن الصحف كتماناً تامًّا ، فوعده المحقق وكان بارًّا بوعده !

كانت تقرأ تفاصيل الحادث لوالدتها ، وهى تهتز انفعالاً ، إلى أن قالت فى النهاية : « عادل ومنتقم يارب . . تمهل ولا تهمل ! ».

واستغفرت ربها وهى تخاطبه : ليست شماتة يارب . . ولكنها عبرة ! ».

ثم قالت لوالدتها : «كم أود يا أمى ، بل كم أتمنى أن أتوجه الآن لوكيل النائب العام ، الذى حفظ شكواى عندما تقدمت بها ضد هذا الحيوان ، منذ شهور ، بحجة أننى راشدة وعاقلة وأملك أمر نفسى ، وأننى ركبت إلى جانبه فى سيارته بمحض إرادتى ، وأننى لهذا أتحمل نتيجة تصرفى . . كم أتمنى أن أتوجه إليه الآن ، لأقول له ما بنفسى . .

ولم تكد تنتهى من عبارتها حتى أزّ جرس الباب فقامت لترى من

الطارق ، وإذا بها – عندما فتحت الباب – أمام أحد ضباط الشرطة ، وهو يقول فى أدب ملحوظ :

الآنسة عصمت مرتضى ؟

– أنا يا سيدى .

– هل تأذنين لى بالدخول ؟

– تفضل . . خيراً إن شاء الله ؟

– خير بإذن الله .

قالها وهو يدخل . . وأغلقت عصمت باب المسكن فى هدوء ، وهى تقول للضابط مشيرة إلى أحد المقاعد : « تفضل بالجلوس ! » .

وجلس الضابط . . وحضرت الأم ، وراعها أن ترى واحداً من رجال الشرطة فى بيتها ، دون أن تعرف لقدومه سبباً . . ولم تكد تسأله هذا ، حتى أسرع يطمئنها :

– لا تنزعجى يا هانم . . إن وكيل النيابة سلمنى هذا الأمر باستدعاء الآنسة عصمت ، لمجرد سؤالها سؤالا واحداً ، تجيب عنه بكلمتين ، وتنصرف بسلام .

أدركت « عصمت » الموقف من فورها ، فقالت ، فى محاولة منها لتبعث الطمأنينة إلى نفس والدتها :

– لا تنزعجى يا « ماما » ، فإننى أدركت كل شىء .

سألتها والدتها ملهوفة : « أدركت ماذا يا عصمت ؟ » .

– الذى لاشك فيه أن الشبهات يجب أن تتجه لى ، متهمة إياى بقتل الأستاذ عبد الحميد لطفى ، فإننى إحدى ضحاياه ، وقد أكون

الوحيدة التى أبلغت باعتدائه عليها . . ولهذا لا يمكن أن يهمل التحقيق استدعائى لسماع أقوالى . . على الأقل ، لكى أثبت للمحقق أين كنت وقت وقوع الجريمة ، فقد أكون القاتلة . . ولم لا ؟

ابتسم الضابط لعصمت وهو يقول :

– كل ما قالته الآنسة عصمت صحيح جملة وتفصيلاً ، وأرجو من الهانم ألا تنزعج .

– ولكن خالها ليس هنا يا ابنى . . إنه فى مهمة خارج القاهرة ، ولن يعود قبل أسبوع .

– إذا أحببت ياسيدتى أن تتفضلى بمصاحبتنا فأهلاً ، وإذا لم يكن يتيسر لك هذا ، فإننى أتعهد بأن أعيدها بنفسى ، لأسلمك إياها يداً بيد !

– شكراً يا ابنى . .

قالتها الأم ، ثم أضافت وهى تقوم عن مقعدها :

– سأصحبكما لأكون بجانبها . . دقائق من فضلك ، وإلى أن أرتدى – وكذلك عصمت – ثياب الخروج . . عن إذنك !

وقامت عصمت مع أمها ، وهى تستأذن الضابط دقائق .

* * *

لم تمض « عصمت » أمام وكيل النائب العام – وأمها معها – أكثر من نصف ساعة . . كان هو نفسه الذى تلقى بلاغها منذ شهور ضد « عبد الحميد لطفى » ، الذى اعتدى عليها بعد أن خدرها فى سيارته . .

ابتسم لها محيياً ، وهو يقول فى رقة بالغة :

– لا بأس يا آنسة عصمت . . حظى أن ألتقى بك دائماً فى مناسبات ليست سارة . . ولكن اليوم ، ليس أكثر من مجرد إجراء بسيط ، ستنصرفين بعد الانتهاء منه إلى دارك بسلام .

ابتسمت وهى تجيبه فى هدوء :

– شكراً ، سيادة النائب . . أدعملك على الوجه الأكمل !

سألها بعد أن فتح المحضر : أين كانت فى اليوم السابق ، بين الساعة السادسة والثامنة والنصف مساء ؟ فأجابت بأنها كانت مع والدتها عند طبيبها المعالج – طبيب الأم – الذى حرّر لها هذه التذكرة الطبية ، وأشارت لأمها فاخرجت – هذه – من حقيبة يدها تذكرة الطبيب ، مؤرخة بتاريخ اليوم السابق .

وأضافت عصمت قائلة :

– ومن عيادة الطبيب ، توجهنا معاً إلى أقرب صيدلية لنشترى الأدوية الموصوفة لها ، وكان من بينها مالا مفرّ من تجهيزه . أى أنه استوجب منا الانتظار إلى أن يتم هذا التحضير ، فانتظرنا إلى نحو الساعة العاشرة ، ويمكن لسيادتك أن ترى خاتم الصيدلية باسم صاحبها على التذكرة ، وبالتاريخ ذاته ، تاريخ الأمس . .

ودخل الغرفة أحد رجال الشرطة برتبة عريف ، فالتقط بصمات « عصمت » ، وهى تتساءل فى دهشة عن سبب هذا ، فأجابها النائب فى لطف ملحوظ :

– إنه مجرد إجراء بسيط ، على سبيل الاحتياط الكلى ، حتى لانزعجك باستدعائك مرة أخرى .

وطلب منها أن توقع على أقوالها ، وكانت لا تتعدى الإجابة على السؤال الواحد الذى وجهه لها . . وعند ما سألته إن كانت تستطيع أن تنصرف ، رجاها أن تنتظر دقائق معدودات ، فظلت جالسة فى مكانها إلى جانب أمها ، إلى ان عاد الشرطى الذى التقط بصماتها – منذ قليل – ومعه ورقة قدمها للنائب ، فقرأها فى لمحة قصيرة ، ثم أومأ إلى « عصمت » بأنها تستطيع أن تنصرف بسلام .

قامت « عصمت » عن مقعدها واقفة . . ولكنها قبل أن تتجه نحو باب الغرفة خارجة ، قالت للنائب المحقق :

– سيادة النائب . . الله يمهل ولا يهمل . . ولا شك أن من قتلته كانت إحدى ضحاياه . . ولقد كنت أتمنى أن أقوم أنا بهذه المهمة ، وإن قدمت حياتى ثمناً لها !

ابتسم النائب وهو يقول فى هدوء : « أرجو منك أن تنسى ما مضى ! »

ابتسمت عصمت فى مرارة ، وهى تقول :

– أنسى ؟ ! . . تريد منى أن أنسى ؟ ! . . أنسى ماذا ياسيدى ؟ . . إننى أستأذنك لأسألك سؤالاً واحداً بسيطاً : ما الفرق بين رجل خدّر فتاة ركبت معه بإرادتها ثم هتك عرضها ، وبين رجل آخر خدّر فتاة ركبت معه بإرادتها ثم قتلها بسكين ؟ . . هل يحفظ البلاغ فى الحالة الثانية – حالة القتل – كما يحفظ فى الحالة الأولى ، حالة هتك العرض ؟ . . وهل يخلى سبيل القاتل لأن الفتاة التى قتلها يجب أن تتحمل نتيجة تصرفاتها ، باعتبارها بالغة سن الرشد ، ولأنها ركبت معه بمحض إرادتها ، كما فى حالتى منذ شهور ؟ . . أو ، السؤال فى كلمتين ، هل يخلَى سبيل القاتل

لمجرد أن المقتـولة ركبت مع قاتلها برغبتها ، وهى رشيـــدة تملـك أمر نفسها ؟ .

وابتسم المحقق محاولاً تهدئة عصمت ، وهو يقول :

– هذا بحث قانونى طويل ، ولا أظن هذا وقته يا آنسة « عصمت » .

وأضافت « عصمت » والمرارة تقطر مع كل حرف من حروف كلماتها :

– سيادة النائب . . بأمانة شديدة ، صدقنى إذا قلت لك . . إننى أشفق على أى محقق يرى نفسه عاجزاً أمام قصور القانون ، عندما تعرض له حالة من هذه الحالات ، فإذا به يجد نفسه مضطرًّا للإفراج عن مجرم هو أول من يؤمن بأنه مجرم حقيقة !

وبذلت جهداً هائلاً حتى لاتفلت من عينيها دمعة حاولت أن تقهر مقاومتها لتفرّ من بين جفنيها . . وأسرعت – وذراعها فى ذراع والدتها – خارجة ، وهى تنحنى للنائب المحقق انحناءة تحيـة وشكر ، فقد كانت تحس فى أعماقها بأنه متعاطف معها ، مقدر لمأساتها ، وإن كان قاصر اليد والحيلة .

وهى فى سيارة « التاكسى » – بجانب أمها – فى طريق عودتهما إلى المنزل ، سمعت نفسها تسألها :

– هل من الضرورى أن يحدث ما حدث لك يا عصمت لابنة أحد الكبار المسئولين ، ليتقدم باقتراح تعديل هذه القوانين القاصرة ، حتى تأخذ فى صورها المعدّلة برقاب أمثال « عبد الحميد لطفى » ؟

وأخفت عن والدتها دمعة لمعت فى عينيها . .

٨

« عائدة » . : وهى تدخل حرم الجامعة صباح السبت ، بمتجهة إلى كلية الحقوق ، للاستماع إلى محاضرة الصباح ، كان يخيل إليها أن كل العيون تتجة نحوها ، تحمل نظرات الاتهام . . عيون زملائها وزميلاتها ، وصديقاتها . . وكل من تعرف ومن لا تعرف . .

كان يخيل إليها أن كل هذه العيون تقول لها :

– أنت من كانت مع بطل فضيحة الأمس ، التى نشرتها الصحف الصباحية والمسائية . . وأنت التى قتلته ، وسرقت ماله وجواهره ونفائسه !

وكان يخيل إليها أن كل من يتقدم لتحيتها من الزملاء أوالزميلات ، سيبادرها بالاستفسار عن تفاصيل الحادث : كيف بدأ ، وكيف انتهى ، وكيف خرجت من المأزق خروج الشعرة من العجين ؟ !

وجهاً لوجه ، وجدت نفسها أمام صديقتها ناهد . . التى كانت فى زيارتها قبل الحادث ، لتستعير منها كراسة المحاضرات .

خيل إليها – لوهلة – أن ناهد ستسألها :

– ما الأخبار ؟ . . ما آخر تطورات الحادث والتحقيق الذى يجرى بشأنه ؟

ولكنها تساندت وتماسكت، وحيّت ناهد – كما تحييها كل صباح – بابتسامتها العذبة الرقيقة ، وقالت لنفسها ، أوقالت لها نفسها :

– تماسكى يا عائدة . . فكل هذا ليس إلا أوهاماً يهيئها لك الخوف . .

وهل من المعقول أن يخطر ببال إنسان – أى إنسان – أنك بطلة الحادث الذى أصبح حديث الجميع ؟ !

سألتها ناهد فجأة : مالك يا عائدة ؟ »

وفوجئت بالسؤال . . ولكنها تجلدت أكثر ، وتماسكت أصلب ، ونسجت ظلال ابتسامة على وجهها ، وهى ترد سؤال ناهد بسؤال من عندها : « مالى يا ناهد ؟ . . هل ترينني على غير عادتى ؟ »

أجابتها ناهد بابتسامتها الوديعة ، التى أحبتها عائدة منذ اليوم الأول للقائهما ، طالبتين صغيرتين من السنة الأولى بكلية حقوق جامعة القاهرة ، إلى أن وصلتا – معاً – إلى السنة النهائية :

– أبداً . . ألمح شحوباً على وجهك ، وهذا كل شىء . . ربما لم تأخذى كفايتك من النوم !

– هذا صحيح يا ناهد . . لم أنم كفايتى ليلة أمس .

وسارت الصديقتان فى طريقهما إلى المدرج الذى يستمعان فيه إلى محاضرة اليوم عن القانون الجنائى .

ناهد سألت عائدة فجأة : « هل قرأت الحادث الغريب فى صحف أمس ؟ »

أجابتها عائدة فى هدوء : « وتابعت قراءته فى صحف اليوم ، ولو أنها لم تأت بجديد » .

– الحادث غامض . .

– يستمد غموضه واستثارته للقراء من كون بطلته فتاة . . هذا رأى الجميع تقريباً .

– وأية فتاة يا عائدة ! ؟

– بمعنى ؟

– حرصها الشديد .. تنفيذها الجريمة بإحكام .. براعتها فى أنها لم تترك بصمة واحدة تقود المحققين إليها ..

علقت عائدة على رأى صديقتها قائلة :

– أتعرفين يا ناهد ؟ .. لقد اكتشفت حقيقة هامة جدًّا ، بعد شيء من التفكير فى ملابسات الحادث .

– أية حقيقة يا عائدة ؟

– حتى لو كانت هذه الفتاة المتهمة بقتل المجنى عليه – المدعو عبد الحميد لطفى – قد تركت بصماتها ، فإنهم لن يصلوا إليها إلا إذا كانت من معتادات الجريمة ، ولها بصمات محفوظة فى سجلات إدارة القلم الجنائى .. ألا تقريننى على هذا ؟

– بداهة يا عائدة .. ولكن أتظنينها من غير معتادات الإجرام ؟

– لا أدرى ، ولكن المهم .. ألست معى فى أنهم لن يصلوا إليها ، إذا لم تكن لها صحيفة جنائية مسجل فيها سابقة أو أكثر ، على أن تكون قد تركت بصماتها فى مكان الجريمة ؟

– طبعاً .. ولو أنى أشك فى أنها جريمتها الأولى ..

– ولم ؟

– من تنفذ مثل هذه الجريمة ، بهذا الإحكام والنجاح ، لا شك فى أنها مدربة على مثل هذا العمل .

– هذا .. أو نحوه ، كان رأى والدى أمس ونحن نتحدث على مائدة الإفطار.

– ماذا كان رأيه ؟

– إنها لا بد أن تكون عاهراً مدربة ، وخطرة .

وجاهدت عائدة لتبتسم ولتضيف : « ولو أنه عاد – بعد ذلك – فرجح أن تكون إحدى ضحايا المجنى عليه ، وانتقمت منه » .

وكانت الصديقتان قد اقتربتا من باب المدرج ، فأنهت ناهد الحديث ، وهما تدخلان معا ، بقولها : « على أية حال ، الجريمة مثيرة . . ولا شك فى أن سر إثارتها كون الفاعل فتاة »

– هذا صحيح .

– ولكن ، لكى يصلوا إليها ، يجب أن يتوفر لهم عنصران .

سألتها عائدة فى لهفة : » ما هما ؟ »

الأول : أن تكون قد تركت بصماتها فى مكان الجريمة . .

– والثانى ؟

– أن تكون من معتادات الجريمة كما اتفقنا ، ولها صحيفة جنائية محفوظة فى القلم الجنائى .

– هذا ما أقول تماماً يا ناهد . . لن يصلوا إليها إلا إذا كان لها صحيفة جنائية محفوظة فى القلم الجنائى . . أليس كذلك ؟

ونسيت ناهد نفسها ، وخيل إليها أنها أستاذ يلقى محاضرة على طلبته ، فراحت تتم حديثها فى نبرة جادة متئدة :

– وحيث إن الجانية لم تترك أية بصمة فى مكان الجريمة ، يمكن . مضاهاتها ببصمات معتادى الإجرام – إذا كانت منهم أو منهن – فإن التوصل إليها يصبح عسيراً ، وإن توصلوا . . فمن الصعب إثبات التهمة عليها .

وكان هذا ما تسعى إليه عائدة لتسمع تأكيده من أى إنسان . .

إن صديقتها « ناهد » قد رددت ما تردده هى لنفسها . . .

فهى تريد أن تطمئن . . أن تنام . . أن تنعم بهدوء النفس والخاطر ، لتتفرغ لاستذكار دروسها ، فإن هى إلا بضعة شهور ويدهمها الامتحان ، وهذه سنتها النهائية فى الدراسة ، وهى لم تتخلف سنة واحدة منذ المرحلة الابتدائية حتى وصلت للسنة النهائية فى كلية الحقوق . . وهى حريصة على أن تنجح لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها . .

مرحلة العمل . . ثم الزواج عندما تلتقى بالرجل المناسب .

* * *

الصحف لا تزال تتابع أنباء جريمة الأسبوع ، مقتل الثرى . « عبد الحميد لطفى » ، وإن بدأت هذه الأنباء تحتل مساحات أقل مما كانت تحتله خلال الأيام التى أعقبت وقوع الجريمة مباشرة .

وشيئاً فشيئاً ، كفت الصحف عن النشر ، فأنباء الجرائم لا تنتهى ، والجديد منها يحجب القديم ويصبح أولى بالمتابعة والنشر . .

ويوم اختفت تماما أنباء هذه الجريمة من الصحف ، وقف الدكتور « نور الدين الريدى » – أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق – أمام ألف ومائتى طالب وطالبة ، يستعدون لنيل إجازة القانون بعد شهور . . وقف أمامهم قبل أن يبدأ محاضرته ، وخاطبهم بقوله :

– إنكم بكل تأكيد قد قرأتم تفاصيل الجريمة التى وقعت فى نهاية الأسبوع الماضى ، فى « فيلا » تقع عند نهاية مدينة المهندسين بالدقى ، فقتل صاحبها بطعنة خنجر من فتاة اصطحبها معه بعد أن خدرها فى

سيارته ، كما شهد بذلك أقرب أصدقائه إليه ، وأيّد بواب المسكن شهادته ، كما أضاف أن هذه كانت « لعبة » سيده . أن يستدرج السيدة أو الفتاة للركوب معه ، ثم يخدرها وهى إلى جانبه فى سيارته ، ويحملها إلى بيته ليعتدى عليها . . إلى نهاية ما ورد فى الصحف . . أريد ممن استهواه الحادث منكم ، ومن شاقه التحقيق إذا كان قد تابعه يوماً بعد يوم ، أن يكتب تحليلا لهذه الجريمة ، مستنتجاً دوافعها وملابساتها والتكييف القانونى لها ، وكيف يتصرف فيها إذا كان فى مقعد النائب المحقق ، وبم يحكم على القاتلة إذا كان مكانه خلف منصة القضاء ، على ألا يزيد هذا على بضع صفحات معدودات ، وشكراً .

وبدأ الدكتور الريدى إلقاء محاضرته على طلبته .

* * *

ليلتان طويلتان أمضتهما « عائدة » فريسة القلق والتردد . .

هل تلبى دعوة أستاذها فتكتب ما اقترحه على طلبته وطالباته ، وهى واحدة منهم ومنهن . . إنه أستاذها وهى تلميذته ، وهو يحبها ويحترمها ويقدر اجتهادها وتقدمها باستمرار ، مع قلة من زملائها وزميلاتها ، وإن كان يبدو واضحاً أنه يخصها – هى بالذات – برعاية أكثر . . ربما لأنها كانت تتميز بهدوء أوضح ، وذكاء أوفر ، واستجابة أسرع ، مع ما تمتاز به من أدب الحديث والخطاب ، بصورة عذبة آسرة لافتة للسمع والنظر معا . .

كان يبدو أنها نشأت بين أبوين كريمين ، من وسط معين وطبقة معينة ، وأنهما أحسنا تربيتها ، فكانت لهما مرآة صافية تعكس ما بذلا فى سبيل تنشئتها على هذه الصورة المضيئة المشرقة . .

هى تشعر بأنها أكثر قدرة من أى محقق على تصور هذه الجريمة ، واستنباط خباياها ، لأنها عاشتها دقيقة بدقيقة ، ما عدا الفترة التى كانت خلالها تحت تأثير المخدر . . وما حدث فى هذه الفترة تعرفه حق المعرفة ، فقد لخصه اللص لها فى كلمات :

عبد الحميد أرقدها على السرير ، وخلع عنها ثوبها ، كما خلع بعض ثيابه . . وعندما هم بها ، خرج له اللص من خلف الستار الذى كان مختفياً وراءه ، وحاول منعه من الاعتداء عليها . . فاشتجرا شجار حياة أو موت ، إلى أن أجهز عليه اللص بطعنة من خنجر يحمله ، ثم سرق ما وصلت إليه يداه . . وكانت هى قد أفاقت ، فخرجت معه . .

على هذا الأساس يجب أن يتناول المحقق تفاصيل هذه الجريمة . . . فالفتاة التى كانت مع المجنى عليه لم تقتله ، ولم تسرق ماله ونفائسه . . ولكن شخصاً ثالثاً كان هناك ، فى نفس الغرفة . . وهو الذى ارتكب الجريمة .

بالتأكيد ، بكل تأكيد . . كان هناك شخص ثالث ، ويجب على المحقق أن يبدأ من هذه الحقيقةالمؤكدة ، وإلا فانه سيظل فى وادٍ والحقيقة فى واد آخر . . وإذا كانت النيابة تريد أن تصل إلى القاتل ، فلتبحث عنه بين اللصوص والقتلة المعروفين لرجال المباحث ، ولتكف عن البحث عن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه .

ووفقاً لهذا المنطق ، الذى لا يخرج بطبيعته عما حدث حقيقة فى هذه الليلة السوداء ، كتبت عائدة تحليلها للجريمة ، ولدوافعها ، ولظروفها ، وللابساتها . . وقدمته بعد أيام لأستاذها الدكتور الريدى ، أستاذ مادة القانون الجنائى .

ابتسم وهو يتناوله منها قائلاً

– سبقك بعض زملائك وزميلاتك يا عائدة ، فقد تسلمت محاولات عديدة من بعضهم ، ولو أنني – بيني وبينك – لم أجد من بينها ما يشير إلى عمق البحث وسلامة الاستقصاء وصحة رد النتائج إلى أسبابها . . ولكنى أرجو أن أجد فى بحثك ما افتقدته فى أبحاث زملائك وزميلاتك .

– أطرقت عائدة فى هدوئها المألوف ، وهى تقول فى شبه همس متقطع :

– أرجو أن أكون قد . . قد وفقت يا دكتور .

ابتسم الدكتور الريدى وهو يقول لها .

– أعدك إذا أعجبنى البحث ، بأن ألخصه فى المدرج ، على مسمع من كل زملائك وزميلاتك ، مشيداً به ، وذلك فى محاضرة الغد .

همست « عائدة » بكلمة شكر ، وهى تستأذن للانصراف من مكتب أستاذها . .

وخرجت . .

* * *

فى اليوم التالى ، دخل الأستاذ الدكتور نور الدين الريدى مدرج السنة النهائية بكلية الحقوق . وقبل أن يبدأ المحاضرة ، وجه الحديث إلى طلبته وطلباته ، بقوله :

– تلقيت عدة أبحاث ممتعة عن جريمة مدينة المهندسين . . وإننى إذ أشكر كل من بذل جهداً مهما كان ضئيلا فى إعداد البحث الذى قدمه لى . فإننى أحب أن أذكر بالذات ، البحث الذى أعدته زميلتكم الطالبة « عائدة محمود فهمى » . . فأنا – وأنا أقرأ بحثها – خيل لى حقيقة أنها

كانت فى مكان الجريمة وقت وقوعها . .

« اسمعوا تحليل زميلتكم عائدة فهمى للجريمة ، وتصورها للأحداث ، واستنتاجها الذى لم يتوصل التحقيق له . .

« تقول عائدة : إن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه لا يمكن أن تقتل رجلاً قوياً فى عنفوان شبابه ، بعد أن أفاقت من المخدّر ، لأنها بالقطع كانت بعد لا تزال تحت تأثير هذا المخدّر ، ولا يمكن أن تكون بكامل قوتها وعافيتها . . وحتى إن كانت ، فإنها من المستحيل أن تتغلب على رجل قال التحقيق عنه إنه فى نحو الخامسة والثلاثين ، وإنه فارع الطول ، وافر الجسم ، قوى البنية

« تستنتج عائدة من هذا أن هناك شخصاً ثالثاً كان معهما فى الغرفة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكب جريمة القتل ، بدافع السرقة فى المرتبة الأولى . . من الجائز أن يكون القاتل أحد أصدقاء المجنى عليه ، وقد اختلفا معا على من ينال الفتاة أولاً ، والجريمة عادة تقود إلى جريمة أخرى . . فبعد أن قتل الصديق صديقه امتدت يده إلى ماله فسرقه . .

« ومن الجائز أن يكون بواب المنزل هو القاتل ، بقصد السرقة ، وهو يعلم أن سيده يحمل مالا بصفة دائمة ، لأنه يملك مزرعة تدر عليه . الآلاف . .

« ومن الجائز جدًّا – وزميلتكم عائدة تميل لترجيح هذا الاحتمال الآتى . . »

وابتسم الدكتور الريدى وهو يقول :

– الواقع أن زميلتكم « عائدة فهمى » تفترض افتراضاً كان أبعد الأمور

عن ذهني ، وهو بالتأكيد لم يطف بذهن محقق الجريمة . . وهو افتراض محتمل وواقعي .

« تقول زميلتكم إن المجني عليه كان يحمل في جيبه ألفي جنيه ، تسلمها ثمناً لثمار حديقة البرتقال ، كما قرر بذلك العاملون في مزرعته وبعض ذويه . . فلم لا نفترض أن واحداً ممن يعلمون بأنه يحمل هذا المبلغ في جيبه — وهم كثيرون — من رجال مزرعته مثلاً ، أو بعض رفاق تاجر الفاكهة الذي سلمه الألفي جنيه . لم لا نفترض أن واحداً من هؤلاء سبقه إلى داره ، ودخلها من الباب الخلفي — وهو شيء ليس صعباً — وانتظر وصول المجني عليه ، وهو يحمل هذا المبلغ الكبير من المال ، وتربص به في غرفة نومه — مختبئاً في أي ركن من أركانها — حتى إذا وصل هاجمه ، ليغتصب منه هذا المبلغ . . فاشتجرا ، بدليل وجود آثار مقاومة في الغرفة ، كما ورد في التحقيق الذي نشرت الصحف جانباً منه . وعندما وجد اللص أن أمره سيفتضح حتماً ، وسينتهي بالقبض عليه وتسليمه للشرطة ، لجأ إلى خنجره فقتله ، وسرق ما وصلت إليه يداه ، وانصرف دون أن يراه أحد

« أما عن الفتاة ، فلا بد أنها كانت قد أفاقت من تأثير المخدر بعد ذلك ، واكتشفت مقتل صاحب السيارة الذي استدرجها لركوب سيارته ، ثم خدرها وحملها إلى مسكنه ليعتدي عليها . . فأسرعت بالخروج من باب الخدم ، حتى لا تُتَّهم في جريمة قتل لا يد لها فيها ، ولا شأن لها بها . وبعد أن خرجت ، اكتشف البواب وصديق المجني عليه الجريمة ، فأبلغا الشرطة ، التي بدأت التحقيق في الجريمة .

« ومن هنا — والكلام لا يزال للدكتور الريدي ، تلخيصاً لبحث

تلميذته – ترى زميلتكم عائدة أنه لا يمكن لأى محقق يتناول هذه الجريمة بالتحقيق – للوصول إلى الجانى – أن يهدر هذا الافتراض ، افتراض وجود شخص ثالث قام بارتكاب الجريمة . . والأرجح أنه لص كانت السرقة هدفه الأول ، فاضطر لارتكاب جريمة القتل . . »

وعاد الأستاذ يقرأ مما كتبت عائدة : أما عن تصرفى فى هذه الجريمة – إذا كنت فى مكان المحقق – فإننى يجب أن أكلف المباحث بالتركيز على السعى للعثور على القاتل ، فهذا هو المهم ، لأنى أستبعد تماماً أن تكون الفتاة المخدَّرة – التى كانت مع المجنى عليه – هى القاتلة .

« وعند العثور عليه ، سيتم التحقيق معه ، وفى ضوء أقواله واعترافاته ، وما يظهره التحقيق ، يتم تكييف التهمة :

« هل هى القتل عمداً مع سبق الإصرار والترصد ؟

« هل هى ضرب أفضى إلى موت ؟

« هل كان القاتل فى حالة دفاع شرعى عن النفس ؟

« وتحال القضية إلى محكمة الجنايات لتنظرها الهيئة ، ولتحكم فيها طبق المواد التى تنطبق على أى حالة من الحالات سابقة الذكر . . »

وابتسم الدكتور الريدى ، وهو يذكر آخر فقرة فى مذكرة تلميذته ، وكانت لا تزيد على كلمات :

« أما التركيز على البحث عن الفتاة ، فهو فى تقديرى مضيعة للوقت ، وإفساح الفرصة للجانى الحقيقى لطمس معالم الجريمة : !

. . . .

انتهى الدكتور الريدى من تلخيص مذكرة تلميذته ، بمسمع من كل

زملائها وزميلاتها ، ثم توجه لهم بالحديث ، فقال :

الواقع أن عائدة قد أحسنت العرض والسرد والاستنتاج إلى حد كبير . .

وأنا شخصياً أميل إلى ما ذهبت إليه ، من أن ثالثاً كان حتماً فى غرفة الجريمة ، مع المجنى عليه والفتاة التى حملها إلى مسكنه مخدَّرة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكب الجريمة ، وسرق ما سرق مما جاء حصره فى التحقيق على ألسنة رجال مزرعة المجنى عليه وأفراد أسرته . . ولو سلك المحقق هذا الطريق ، ربما وصل إلى القاتل فى أقصر وقت ممكن ، بالرغم من الصعوبة الكبيرة التى تعترضه ، وهى عدم وجود أية بصمات يمكن أن تقود إليه ، ومع ذلك فالقضية لا تزال قائمة ولم يحفظ التحقيق فيها بعد ، لعدم العثور على الفاعل . . »

وابتسم الدكتور الريدى لطلبته ، ووضع يده فى جيب سترته الداخلى ، وهو يقول :

– لإعجابى الشديد بمذكرة زميلتكم عائدة فهمى، سأقدم لها قلمى هذا ، هدية وتشجيعاً وتقديراً لما بذلته فى إعداد هذا الموضوع من عناء جاد .

وضج المدرَّج بالتصفيق . . وتقدمت عائدة من أستاذها ، فصافحها ، وسلمها قلمه ، وهو يقول لطلبته :

– لعلكم لا تعلمون أن هذا الموسم الدراسى هو آخر عهدى بالتدريس لكم ، فلم يعد لنا غير بضعة أشهر نلتقى خلالها – فى هذا المدرج – لأننى أبلغ سن اعتزال الخدمة فى شهر يوليو القادم . . وسيكون آخر ما أعمله فى هذه الكلية العزيزة علىّ ، هو تصحيح أوراقكم وستنجحون وتتخرجون جميعاً بإذن الله . . وسيسعدنى كثيراً أن يشرفنى أى واحد ، منكم ومنكن ،

بزيارتى فى مكتبى ، إذا احتاج إلى رأى أو مشورة ، فإننى ساعمل بالمحاماة بعد اعتزالى الخدمة ، وأظنكم – جميعاً – تعرفون عنوان هذا المكتب . إنه بالمبنى رقم ٨ بشارع قصر النيل .

٩

عائدة لا تدرى أنها عندما كتبت تحليلها لجريمة مدينة المهندسين ، لتقدمها لأستاذها . . كانت متأثرة بفكرة واحدة . . أن تدافع عن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه ، وأن تنفى عنها تهمتى القتل والسرقة ، لأنها فى الواقع كانت تدافع عن نفسها وتنفى عنها التهمتين معا . .

افترضت – للتعمية – عدة افتراضات ، ولكنها ساقت بينها الوصف الحقيقى للجريمة ، وهو دخول لص – أى لص – إلى المسكن قبل وصول صاحبه ، ليسرق ما يحمل من مال . .

وافترضت – للتعمية أيضاً – أن يكون هذا اللص أحد رجال مزرعته ، أو أحد رفاق تاجر الفاكهة ، الذى اشترى منه ثمار حديقة البرتقال . . ثم طلبت – فى نهاية المذكرة – أن يكون التركيز على البحث عن هذا اللص ، وليس عن الفتاة التى حملها المجنى عليه إلى مسكنه غائبة عن وعيها ، ليعتدى عليها . . أى ، عنها هى . .

وراحت تستعيد ما قاله أستاذها ، وهو يلخص مذكرتها لزملائها . وزميلاتها . . واستوقفتها عبارة قالها ، قبل أن يبدأ التلخيص . . قال أستاذها :

« خيل لى حقيقة أنها – أى عائدة – كانت فى مكان الجريمة وقت وقوعها » . !

هذه العبارة أقلقت عائدة ، وأحست – عندما قالها أستاذها – كما لو أن إبرة رفيعة حادة ، وخزت قلبها . . وبدأ شاغل يتسلل إلى نفسها . .

هل كانت أسيرة ما يصطرع فى عقلها الباطن ، من إحساسها بأن كل العيون عليها وكل الأصابع تشير إليها ، ولهذا كان تركيزها فى المذكرة على ذكر الحقيقة . . أن « ثالثاً » كان فى غرفة الجريمة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكبها . . وكل هذا فى محاولة مستميتة منها ، لإقصاء تهمتى القتل والسرقة عنها ؟

هل بالغت فى تحمسها وهى تكتب هذه المذكرة لدرجة التورط ! . . هل ما كتبته – إذا اطلع المحقق عليه مثلاً – يمكن أن يشير إليها وإلى أنها الفتاة التى يبحثون عنها بأنوف أكثر حساسية من أنوف الكلاب البوليسية المدربة ؟ . . هل كشفت عن نفسها بما كتبت دون أن تدرى ؟

إنها لا تدرى . .

كل ما تدريه أنها أسيرة دوامة عاتية ، فى متاهات المحيطات السبعة ، تحوطها جدران هائلة عالية ، مظلمة ، مخيفة من الماء . . بلايين البلايين من أطنان الماء تحيط بها ، وهى تدور معها ، وبذات سرعتها ، لا تستطيع ولا تملك من أمر نفسها شيئاً . . انها فى قاع الدوامة . . قاع الدوامة العاتية ، فى متاهات المحيطات السبعة !

هل يستطيع بشر أن يوقف دوران دوامة ، فى مياه المحيط . أى محيط ؟ !

هل يستطيع بشر أن يتسلق الماء ؟ !

وفكرت فى أن تستأذن أستاذها لتسترد المذكرة التى قدمتها له ، ولتعلل

هذا بأنها تود أن تحتفظ بها للذكرى ، ثم لتمزقها بعد ذلك ، أو تحرقها عندما تنفرد بنفسها . . ولكنها استسخفت الفكرة فاستبعدتها ، وابتدأت تستعرض موقفها فى هدوء – حاولت أن تصنعه لنفسها ، فسألت نفسها :

– ممَّ تخافين يا عائدة ؟

البواب قال فى التحقيق إنه – لثلاثة أسباب – لم يروجه الفتاة التى دخل سيده يحملها على ذراعيه مخدَّرة : أولها الظلام الذى ما كان يمكن أن يتيح له رؤية وجهها إذا حاول ، وهو ما كان يمكن أن يحاول . . وثانيها أن وجه الفتاة كان مختفياً فى صدر سيده ، وهو يحملها على ذراعيه . . وثالثها – وهو الأهم – أنه بواب . . بواب وحسب ، وليس من شأنه – ولا يملك – أن ينظر إلى وجه سيدة يأتى بها سيده ، سواء كانت محمولة على ذراعيه ، أو تسير على قدميها بجانبه . . كبقية خلق الله ! . .

هكذا علّمه سيده منذ ألحقه بخدمته ، وكذلك علّم البستانى . . ولما سأله المحقق عما إذا كان يستطيع التعرّف على هذه السيدة أو الفتاة – إذا وقفت أمامه بين أربع أو خمس سيدات أو فتيات – أجاب بالنفى القاطع ، ثم أكد هذا ، مضيفاً بلهجته الريفية البسيطة كما ذكرت الصحف : « إنى أخاف الله ، فلا أظلم أحداً حتى لا يظلمنى أحد » !

– فممَّ تخافين يا عائدة ؟ . . مم تخافين ولم تشر الصحف – مجرد إشارة – إلى وجود بصمات للفتاة التى كانت مع المجنى عليه ، أى بصماتك . . وهذا أخطر ما يجب أن يؤخذ فى الحساب !

« خوفك إذن – يا عائدة – لا سبب ، ولا مبرر ، ولا داعى ، ولا محل له . . فاطمئنى واهتمى بدروسك ومحاضراتك ، وتفرّغى للاستذكار

فالأيام تسرقك ، والامتحان يقترب ، وأنت تحاولين النجاح بتقدير يتيح لك وظيفة « معيد » بالجامعة . . ألا تريدين أن تكونى معيدة ، لتصبحى ضمن أعضاء هيئة التدريس فى الكلية التى أمضيت بها – طالبة – أربعة أعوام من عمرك ؟

« ما أجمل أن تقفى فى المدرج ، أمام أكثر من ألف طالب وطالبة ، لتعيدى عليهم وعليهن محاضرة الأستاذ . . فى ذات المدرج الذى جلست على أحد مقاعده طالبة ، على مدى أربعة أعوام مرت كالحلم . . هذا المدرج ذاته تقفين على منصته معيدة ، ثم مدرسة مساعدة ، ثم مدرسة ، ثم أستاذاً مساعداً ، ثم أستاذاً . .

« ولم لا ؟ . . إنك بالتأكيد ستحضرين للماجستير ، ثم للدكتوراه . . وستصبحين الدكتورة عائدة محمود فهمى ، أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق ، بجامعة القاهرة . .

« ولم لا ؟ . . لم لا ياعائدة ؟ » . .

وابتسمت وهى مستلقية على فراشها ، بالرغم من القلق الذى يسمّم هناءها . والخيال يصعد بها حينا إلى ذرى الموج ، ثم يهبط بها حينا آخر إلى سحيق القاع . .

وقامت من فراشها منتصبة كالغزال ، وهى تقول فى ثقة وإيمان عميقين : « إننى بريئة وطاهرة ، والله يعلم أننى لم أقتل ، ولم أسرق ، ولن يكون . . وهو لن يتخلى عنى أبدا ؟ » .

وهمست ، فيما بينها وبين نفسها : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » !

وأقبلت على الحياة . .

استردت الكثير من هدوء النفس ، فبدأت فى تنظيم وقتها : دراستها ، وطعامها ، ونومها ، واستذكار دروسها . . وكان هذا كله قد تعرّض لخلل مدمّر ، خلال الأسابيع التى انقضت على تلك الليلة ، التى كانت تراها على بعدين متنا قضين تناقضاً أعجزها تفسيره :

فهى تراها . . كأنها الأمس ، أمس اليوم الذى تعيشه . .

وهى تراها . . كما لو أن سنين طويلة قد انقضت عليها !

١٠

الشهور تمضى . . وعائدة ماضية فى حياتها الطبيعية . .

أب لطيف أنيق ، رقيق ، كريم ، مهذّب ، واسع الأفق ، سليم الإدراك ، يفيض قلبه حبًّا وحنانًا نحو وحيدته « عائدة » وأمها . . وقد تعلّم ، وسافر ليستزيد من العلم ، وكان تخصصه الصيدلة ، فنال فيها درجة الدكتوراه من لندن ، وعاد وأسس صيدلية خاصة به ، أسفل المسكن الذى ورثه عن والده ، فى ضاحية « جاردن سيتى » . .

زوجه – والدة عائدة – ليست غريبة عنه ، فهى ابنة خالته ، أحبها وأحبته وهو طالب ، وتزوجها وهو طالب ، وأنجبا عائدة وهو طالب ، وكان ميلادها مقدم سعد على أبويها . . فقد كان والدها فى السنة النهائية من دراسة الصيدلة ، عندما رزقه الله إياها . وكان نجاحه بتقدير ممتاز ، فأوفد فى بعثة مجانية لإتمام دراساته العليا ، عاد بعدها ليبدأ حياته العملية بنجاح كبير . .

والدة عائدة . . سيدة تفيض رقة وعذوبة وحنانا ، وقد كانت زينة أسرتها وقطتها المدللة ، ولا تزال – وقد تخطت الأربعين بسنة واحدة – العروس الجميلة التى لا يرى فيها زوجها – والد عائدة – إلا عروسه الشابة التى تزوجها منذ نحو أربع وعشرين سنة ، وكأن دخوله بها كان فى ليلة الأمس فقط . . أمس اليوم الذى يعيشه !

كانوا دائماً أصدقاء ثلاثة ، وكان جمعهم – إذا اجتمعوا فى حفل ، أو دعوة ، أو عشاء ، أو أية مناسبة من المناسبات – ملفتا للأنظار ، كل الأنظار . .

فالأب – الدكتور محمود فهمى – تتمناه بنت الخامسة والعشرين – زوجا ، بالرغم من أنه شارف السادسة والأربعين . . فهو فارع الطول مهندم أنيق أناقة عالية خفيض الصوت ، عذب الحديث ، غزير العلم والمادة ، لا يشبع المستمع إليه مهما طال حديثه وتشعب . .

والأم – فوقية هانم – صورة مضيئة للأم التى رعت زوجها وابنتها وأعطتهما كل حياتها عطاء بلا حدود . . وهى دائما محط الأنظار ، وموضع الاحترام والتقدير . . وقد سافرت مع زوجها وابنتهما ، فطافوا ثلاثتهم بأجمل بلاد الدنيا ، فجمعت من هنا ومن هناك حصيلة ضخمة من التجارب واللغات والمعارف . وكانت – كزوجها – مركز الدائرة بين جمع السيدات ، فى أى مكان تحل به ، فتجتمع حولها صديقاتها ولا يتركنها إلا إذا حان موعد الانصراف . .

والابنة – عائدة – كانت دائماً قطعة الماس النادرة الثمينة ، التى تضوى بريقاً فوق المخمل الأسود اللامع ، خلف واجهة من البلّور الشفيف

المصقول . . فى حركتها ، فى حديثها ، فى نظرتها ، فى لفتتها ، فى إيماءتها . . وكان الناظر إليها – وهى تضع نظارة طبية رقيقة على عينيها أحياناً – يحار أمام هذا الحسن الفريد ، ولا يملك أن يقول لنفسه إنها – والنظارة فوق عينيها – أجمل ألف مرة منها عندما ترفعها عنهما . . فإذا رفعت النظارة عن عينيها ، أسرع يقول : « بل هى بلا نظارة أجمل ألف مرة . . من يستطيع أن يطيل النظر إلى هاتين العينين دون أن يصاب بإغماء » !

وهكذا يحار الناظر إليها فى جمالها ، الذى كالته السماء لها بغير حساب . فوجهها يبدو وكأن الله قد خلق كل قسمة من قسماته على حدة ، ثم صقله على حدة ، وجمّله على حدة ، وسوّاه على حدة . . وفى النهاية ضم هذه القسمات بعضها إلى بعض ، كل فى مكانه من الوجه ، فإذا بهذه الصورة الفريدة فى النهاية . . وجه عائدة ! .

وكان الجميع يطلقون على هذا الثالوث المفرح الجميل – عائدة ووالدها ووالدتها – الأسرة السعيدة . .

من كل هذا استمدت عائدة القوة والقدرة على أن تطرح خلفها الحادث الذى وقع لها ، محاولة ألا تتذكره حتى لا يعكر عليها صفو حياتها ، والامتحان على الأبواب . . .

* * *

إلى أن كان ذات يوم ، أحست فيه بأن الأيام تصالحها . . والزمن يصفو لها . . الدنيا تصيح بها ابتسمى يا عائدة . . طيبى نفساً ، واهدئى قلباً ووجداناً ! . . ذلك أن صحف الصباح اليومية الثلاث نشرت خبراً صغيراً فى صفحة الحوادث ، والخبر يقول :

« قررت النيابة العامة حفظ التحقيق فى الجناية الخاصة بمقتل الثرى عبد الحميد لطفى ، والتى وقعت فى شهر نوفمبر الماضى – حين وُجد المجنى عليه مقتولا بطعنة خنجر نافذة إلى القلب ، فى غرفه نومه ، بمسكنه بمدينة المهندسين – وذلك لعدم العثور على الفاعل . . وكان المجنى عليه قد اعتاد استدراج السيدات والفتيات ممن يعييهن العثور على سيارات الأجرة ، فيعرض عليهن حملهن بسيارته إلى حيث يردن . . وعندما تركب معه السيدة أو الآنسه ، يحتال على تخديرها ، ثم يسرع بها إلى بيته ويعتدى عليها . . وقد قيدت الجناية ضد مجهول » .

. . . .

عندما فرغت عائدة من قراءة هذا القرار ، أحست كما لو أنها كانت قطعة من المطاط ظلت زمنا تحت ثقل كبير ضاغط لا يتزحزح ، فانكمشت طولا وعرضا وحجما وتكوينا ، ثم انزاح هذا الثقل عنها فجأة ، فانتفضت لتعود إلى حجمها الطبيعى ، طولا وعرضا وحجما وتكويناً . .

إنها تستطيع الآن أن تتنفس بحرية . . أن تتحرك بحرية . . أن تضحك بحرية وبملء قلبها ونفسها إحساساً بمتعة الضحك وانطلاقه ! . . تستطيع أن تأكل بنفس ، أن تتحرك بنفس ، أن تستذكر دروسها بنفس ، أن تلتقى بزميلاتها وصديقاتها كما كانت تلتقى بهن قبل هذا الحادث التعس ، والبسمة تشرق على شفتيها ، والفرحة تضىء عينيها ، وحب الحياة والإقبال عليها يزيدها جمالاً وشباباً وبهاء ونضرة .

وكان اليوم يوم خميس ، يوم طلعت الصحف بهذا النبأ ، وقد قرأته وهى تجلس مع صديقتها ناهد – على مقعديهما المتجاورين دائماً فى مدرج

المحاضرات – انتظاراً لدخول الأستاذ المحاضر . . وكانت « ناهد » هى التى وجهت نظرها إليه ، وهى تتصفح إحدى صحف الصباح :

– تصورى يا عائدة . . أتذكرين جريمة مدينة المهندسين ، التى أشاد الدكتور الريدى بتحليلك إياها منذ شهور ؟ . . لقد حفظتها النيابة ، لعدم الوصول إلى الفاعل !

وكادت عائدة تهتف صائحة : » الحمد لله ! » . . كادت كلمتا « الحمد لله » تنطلقان من بين شفتيها ، ولكنها تمالكت ، وتماسكت ، وضغطت أعصابها وهى ترسم ابتسامة على وجهها ، وتسأل صديقتها فى هدوء : « حقيقى ؟ » .

قدمت ناهد لها الصحيفة ، وهى تقول : اقرئى . . هذا قرار الحفظ ! »

ولم تكد عائدة تنتهى من قراءته ، حتى دخل الأستاذ المحاضر ، فأعفاها دخوله من التعليق أو الأخذ مع صديقتها فى حديث ، قد تنزلق فيه – على لسانها – كلمة مما لا يجوز أن تنفرج عنه شفتاها . .

إنها تخاف عقلها الباطن وتخشاه . . تخاف أن يتخلى عنها . . أن يغدر بها . . أن يغافلها فيدفع إلى لسانها – دون أن تشعر – بكلمة قد يكون فيها الكشف عما تخفيه عن الدنيا بأسرها . . وتتمنى لو استطاعت أن تخفيه عن نفسها . . حتى نفسها !

وبارحت الكلية – فى ذلك اليوم – سعيدة ، فرحة ، خفيفة نشطة وجلست بين أبويها إلى مائدة الغداء ، دون أن تغير ثوبها ، الذى خرجت به صباحاً من البيت . . كانت جائعة ! . . وكانت تتصور أنها تستطيع أن تأكل خروفاً . . ولكنها ما كادت تشرب ملعقة من قدح الحساء الساخن

أمامها ، حتى أحست بالشبع . .

فرحتها بالنبأ – الذى قرأته متضمناً قرار النيابة بحفظ التحقيق فى مقتل عبد الحميد لطفى ، وقيد الجناية ضد مجهول – منحتها الإحساس بالشبع . .

وهى تعلم أنه شبع كاذب . . هذا صحيح ، ولكنها تعلم أيضاً أنها ستأكل ، بعد أن يزول عنها أثر الانفعال الذى لازمها منذ قرأت نبأ حفظ التحقيق فى الجريمة .

قالت والدتها : « لم تأكلى ياعائدة ، مع أننى أوصيت الطاهى بالشركسية اليوم . . من أجلك ! » .

ابتسمت عائدة وهى ترسل لأمها قبلة صغيرة على الهواء ، عبر المائدة ، وتقول : « نظرة إلى عينيك يا ماما تشبعنى أكثر ، وتمتعنى أشهى من أى شركسية أو أى ألماسية !

وضحكت الأم ، وشاركها الوالد ضحكتها ، وهو يقول :

– لا يمكن ألاّ تأكلى يا عائدة فأنت متعبة ، وللتو وصلت من الكلية ، وأنت بالتأكيد جائعة . .

ثم قدم لها تفاحة حمراء نضرة ، من صحفة الفاكهة التى كانت بعيدة عنها ، عند طرف المائدة ، وهو يقول :

– مادمت لا تحسين الجوع الآن ، فلا أقل من أن تأكلى هذه التفاحة . . وإلى جانبها موزة أو موزتين ، إلى أن تحسي برغبتك فى تناول الطعام .

تناولت عائدة التفاحة من أبيها ، وهى تقول فى ابتسامتها العذبة : « شكراً يا بابا » . . ثم أضافت :

– ما رأيكما فى الآتى ؟ . . اليوم الخميس ، أعنى نهاية الاسبوع ،

فان غدا الجمعة – هل تمنحانى شرف دعوتكما الليلة إلى عشاء فى شرفة « شيراتون » المطلة على النيل ؟

ابتسم والدها وهو يقول :

– ولم لا نجعلها فى الدور العلوى ، لكى أرقص معك ومع « ماما » ؟

أفلتت عائدة التفاحة من بين أصابعها ، وصفقت بكفيها الصغيرتين فرحا وابتهاجاً ، وهى تقول : « صحيح ؟ » .

– تحت شرط واحد . . .

– إذا كان بابا سيرقص معى ، أو إذا كنت سأرقص أنا مع بابا ، فكل شروطه مجابة ، أمام هذه المتعة التى لا تطاولها متعة أخرى . . هات شرطك الواحد !

– الدعوة دعوتك ، هذا صحيح . . ولكن على أن تسمحى لى بشرف محاسبة المسؤول عن الخدمة .

– يا بابا . . ؟!

قالتها فى احتجاج مهذب رقيق ، ثم أضافت : « لم تحرمنى هذه السعادة ؟ » .

وكانت الأم ترقب المناقشة بين زوجها وابنتها ، بعينين تكاد الدموع تلمع فيهما . . إن السماء لم تعط امرأة زوجاً فى رقة زوجها وحنانه ، كما أنها لم تعط أماً ابنة فى عذوبة وشفافية ابنتها عائدة . .

أجاب الأب ابنته ، وقلبه يطل خلال عينيه : « أنا ؟ . . أنا احرمك سعادة ما يا عائدة ؟ ! . . لو سألونى بمَ تشترى السعادة لابنتك أو لأمها ، لأجبت بكلمة واحدة . . بعمرى ! » .

وهبت عائدة واقفة ، وقبلت خد والدها ، وهى تقول فى صوت طفلة : « ياحبيبى يا بابا ! » . . ثم أضافت :

– على أية حال . . المهم أنكما قبلتما دعوتى .

– وهل نملك إلا أن نقبلها ؟

– ولن نختلف على من منا يسدد الحساب . . أليس كذلك يا ماما ؟

ابتسمت الأم وهى تقول :

– الغريب يا عائدة أننى كنت على وشك أن أقترح على بابا ، أن نتناول عشاءنا الليلة خارج البيت !

وقبلت عائدة أمها ، وهى تقول : « يا حبيبتى يا ماما . . كأن كلاً منا تقرأ أفكار الأخرى » .

انعكس نبأ حفظ التحقيق على سلوك عائدة ، فبدت فى سعادتها كمن استطاعت أن تحقق المعجزة . . أن تتسلق الماء . . أن تتسلق جدران الدوامة العاتية ، التى كانت قد احتوتها فى متاهات المحيطات السبعة . . وعندما وصلت إلى السطح ، وجدت نفسها قريبة من الشاطئ ، والماء الهادئ يحملها مهدهدًا إياها ، إلى رماله الناعمة . . شيء كالحلم !

١١

الامتحان يقترب . . يبدأ بعد أسابيع ، ويستغرق شهراً . .

وهى واثقة بنفسها ، مؤمنة بأنها ستنجح بتقدير ممتاز ، وستتقدم بأوراقها – بعد ذلك – إلى الكلية التى احتضنتها طالبة ، لتعمل بها فى منصب « معيد » .

قالت لوالديها ، وهم حول مائدة العشاء ذات مساء : « لن أقبل أى عمل بعد نجاحى إلا فى كلية الحقوق ، فى وظيفة معيد » .

وقال لها والدها : « معنى هذا أنك مصممّة على التخرّج بتقدير ممتاز؟ »

— إن شاء الله !

ضحكت والدتها ، وهى تسألها : « — وإذا تفضلت وتنازلت عن هذا التقدير ، إلى ما دونه مباشرة ، أعنى جيد جدًّا ؟ »

— سأشتغل بالمحاماة . . إما فى منصب معيد فى كلية الحقوق حيث كنت طالبة ، وإما المحاماة إذا خاننى المجموع . . أما أية وظيفة أخرى . . فلا !

ابتسم والدها — وهو ينزع عن موزة قشرتها — ويقول :

— والله يا عائدة . . لو نجحت بتقدير ممتاز كما تقولين ، فستكون هديتى لك سيارة صغيرة جميلة . . وهذا وعد من بابا !

صفقت كعادتها للتعبير عن سرورها ، وهى تقول :

— مهما كانت صغيرة ، فستكون فى نظرى كما لو كانت « رولز » أو « كاديلاك » .

وقبلت والدها ووالدتها ، وهمت بالقيام عن المائدة . . ولكن والدها استبقاها وهو يقول : « اجلسى ياعائدة ، فإن عندى ما أقوله لك بحضور ماما » .

وجلست عائدة ، وبدأ والدها يتكلم . . وكان مختصراً ومفيداً :

— فى كلمتين ، زارنى — اليوم — الأستاذ زكى الرفاعى ، المدرس

بكلية الحقوق وسألنى يدك ، فاستمهلته لأسألك رأيك أولاً . . وبينى وبينك ، لأستفسر عنه ثانياً . . فما قولك فى هذا ؟

مطّت عائدة شفتيها ، وحارت صمتاً ، أو صمتت حيرة ، لا تدرى بم تجيب . . فقد كان العرض مفاجأة لها . وسألتها والدتها : « أتعرفينه يا عائدة ؟ »

- طبعاً يا ماما ، فقد كان مدرّسى .

- هل فاتحك برغبته هذه قبل ذلك ؟

- لم يفاتحنى قط ، وقد يكون هذا سر حيرتى أو دهشتى .

وتطوع والدها بتفسير هذا ، فقال : « عندما بدأ يحدثنى عن رغبته ، قال لى إنه لم يحاول أن يفاتح عائدة فى أى شىء ، بل إنه لم يحاول قط أن يعطيها الفرصة لأن تلحظ عليه اهتمامه بها ، فإن دقة موقفه بالنسبة لمكانه منها - مدرّس وتلميذته - ردته عن طرق هذا الباب . . لأنه رأى أن هناك باباً أقرب وأولى بأن يطرقه ، وهو أن يزورنى باعتبارى والدها ، ليطلبها منى . . ثم أضاف قائلاً

- هذا هو الطريق السليم يا دكتور محمود ، وقد سلكته .

وفى الحقيقة أننى أكبرت فيه سلوكه ، فهو كما يبدو - شاب جاد ، يطرق البيوت من أبوابها كما يقولون . . ولكن القرار النهائى معلق بكلمة تقولها عائدة ، قبولا أو رفضاً . . ربما أعجبنى أنا - مبدئيا - ولكنه قد لا يعجبها لأى سبب . . قد تستثقل ظله ، مثلاً . . »

سألتها والدتها : « ما رأيك يا عائدة ؟ »

أجابت عائدة ، ببطء من فوجئ فلا يستطيع أن يفصل فى أمر

ذى خطر بمجرد عرضه عليه :

– والله يا ماما . . إنه – ككلٍّ – لا بأس به .

وابتسمت وهى تنظر لأبيها ، وتضيف :

– لا أعرف عنه شيئاً أكثر مما يبدو لى ولكل من معى من طلبة وطالبات . .

ثم بعد لحظة صمت قصيرة ، أردفت :

– عائلته تهمنى جدًّا : مَن أبوه ؟ ومَن أمه ؟ كيف نشأ ؟ كيف تربى ؟ . . . التعلم لا يخلق « إنساناً » بمعنى كلمة الإنسانية فى شمولها الواسع . . فأنا وجميع زملائى وزميلاتى سمعنا أخبارا لا شك فى صحتها ، عن أستاذ – وأكرر كلمة أستاذ – هوايته الوحيدة الزواج . . فهو يتزوج ثم يطلق بعد شهور ، حتى بلغ عدد مطلقاته – فى سبع سنوات – تسع زوجات ، وهو يبحث عن العاشرة . . وهذا فى نظرى وفى نظر أى إنسان . . حيوان ! »

أجابها أبوها برفق : « إذا وافقت مبدئيًّا ، أعنى فى حدود رؤيتك اليومية له ومعرفتك به ، فاتركى لى الباقى ! »

أجابته ابنته فى هدوء : « اذا أسفرت تحرياتك عنه ، عن موافقتك وقبولك إياه زوجاً لابنتك ، فلا مانع عندى من قبوله . . وأرجو أن تتاح لى فرصة الجلوس معه – هنا فى البيت – أتحدث إليه وأسمع منه ، كما يتحدث إلىّ ويسمع منى ، حتى أعرفه أكثر . . ما رأى حضرتك يا بابا ؟ وما رأى حضرتك يا ماما ؟ »

أجابها والدها ، مؤيداً فكرتها :

– هذا اقتراح فى محله . . بمجرد أن أعرف عنه كل شيء، دون أن أري ما يمكن أن يؤخذ عليه ، أخبركما – أنت وماما – وندعوه إلى عشاء معنا فى البيت ، وبعد هذا تكون الكلمة الأخيرة لك . .

* * *

جرس المسرة يئزّ – ذات صباح – فى مسكن الدكتور محمود فهمى . وتسرع « عائدة » فترفع السماعة، وإذا بأستاذها الدكتور الريدى يهنئها بنجاحها بتقدير ممتاز ، ثم يزفّ لها نبأ يعلم أنه سيسعدها كما لم يسعدها نبأ من قبل . . لقد رُشِّحت لمنصب « معيد » بكلية الحقوق ، وقد علم أن ترشيحها قد ووفق عليه بالإجماع ، وعليها أن تعدّ نفسها وتستعد بأوراقها ، حتى إذا انتهت إجازة الصيف وبدأت الدراسة ، كانت كل مستنداتها مستكملة . .

وأضاف الدكتور الريدى محدثا تلميذته : « علمت أن الأستاذ زكى الرفاعى تقدم لخطبتك ، وأنه فاز بهذا الشرف العظيم ، فهنأته بكل قلبي وقلت له : يا زكى . . إنك فزت بجوهرة ! »

وشكرت عائدة لأستاذها رقة مشاعره نحوها ، واخبرته معتذرة عن عدم دعوته فى حفل الخطبة – بأنه لم يكن – حفلاًبالمعنى المفهوم ، بل كان مجرد اجتماع عائلى صغير ، لم يستغرق أكثر من ساعة . . ولكنه – أى أستاذها – لن يكون مجرد مدعو كبقية المدعوين فى حفل زفافها . . بل إنه سيكون أحد شاهدى عقدها ، ليشرف وليبارك وثيقة زواجها بتوقيعه . .

هكذا قالت لوالدها ، الذى اعتبر هذا شرفاً كبيراً يمنحه الدكتور الريدى لابنته وتلميذته عائدة .

ولم يكد زكى يعلم بنبأ نجاح عائدة وترشيحها لوظيفة «معيـد» . . بالكلية ، حتى أسرع إليها مهنئاً ، دون أن يدرى أن أستاذه وأستاذها قد سبقه إلى هذا . . ولكن عائدة – من أدب مفرط ، وذوق أصيل ، ورقة مطبوعة ، وتربية عالية وإحساس عميق بما يجوز وما لا يجوز – لم تشأ أن تفسد عليه فرحته بأنه – كما يخيل إليه – أول من يحمل لها النبأ المفرح . فأخفت عنه أنها تعلم كل هذا من أستاذها ، وتقبلت تهنئته شاكرة ، وهى تقول ، إمعانا فى مجاملته :

– إنك « قدم سعد » كما يقولون يا زكى ، فلم تكد خطبتنا تتم حتى أعلنت النتيجة ، وإذابى أنجح بامتياز ، وأرشح للوظيفة التى تمنيتها .

وأكد هو هذه الحقيقة بقوله :

– ليس مجرد ترشيح وحسب يا عائدة ، فالمعلومات التى استقيتها من أوثق المصادر ، تقول إن ترشيحك قد ووفق عليه بإجماع لم يسبق له مثيل فى تاريخ الكلية ، وسيصلك خطاب التعيين فى خلال أسابيع .

– شكراً يا زكى

ثم فى ابتسامة رقيقة : « هذه بركاتك ! »

ولم يدع زكى الفرصة تفلت منه ، فالحديث مفتوح . . الموضوع الذى كان يحاول أن يخاطبها فى شأنه مطروح بينه وبينها ، ففيم التردد ؟

– اسمعى يا عائدة . . ما رأيك فى أن نتزوج خلال هذا الشهر ؟

– هذا الشهر ؟ !

– ولم لا ؟ . . نتيجة الامتحان أعلنت ، وقد نجحت بامتياز والحمد لله والذين يرشحون للوظيفة التى رشحت لها لا ينطبق عليهم قانون الخدمة العامة ،

لأنهم فى حكم المكلَّفين ، فلم نهدر أجازة هذا الصيف وكل منا بعيد عن الآخر ، محروم منه ؟ . . نستطيع أن نتزوج خلال هذا الأسبوع ، أو الأسبوع الذى يليه ، ثم نسافر إلى الإسكندرية ، فنمضى هناك ما شئنا من الوقت ، حتى موعد بدء الدراسة بالجامعات إذا شئت . ثم نعود فتتسلمين عملك ، ثم نستوفى معا أوراق ومسوّغات التعيين على مهلنا . . فكرى يا عائدة ! . . لم نضيع أشهر هذا الصيف الجميل بعيدين كل عن الآخر ؟

وأطرقت عائدة تفكر . .

هذا الرجل كله مفاجآت . . خطبته إياها كانت مفاجأة . . إعلان هذه الخطبة كان مفاجأة . . وها هو الآن يفاجئها برغبته فى أن تزف إليه خلال أسبوع أو أسبوعين ، وكانت تقدّر ألاّ يتم هذا قبل شهور . .

وأحس هو بأنها تدير شيئاً فى رأسها الصغير ، فأسرع يلاحقها :

— لا تحملى همّ شىء . . لقد وفقنى الله إلى « فيلا » رائعة ، خالية ، شاهدتها ، فأعجبتنى . وقد أعطيت البواب عشرة جنيهات ليرد عنها كل من يحاول مشاهدتها من الداخل ، بقوله إنها استؤجرت . . سأصحبك مع الوالدة اليوم ، بل الآن ، لتقولى رأيك فيها ، حتى إذا أعجبتك وقعت عقد استئجارها فوراً ، وبذلك نكون قد احتجزناها لحين عودتنا من الإسكندرية ، لنبدأ تأثيثها .

سألته وابتسامة على وجهها : « كيف وجدت مسكنا خالياً ؟ . . هذه معجزة » .

ضحك — سعيداً — وهو يقول :

– ربك يا عائدة . . ربك عندما يريد أن يسهلها ، فلا تسألى عن الأسباب !

هزت رأسها وابتسامتها العذبة تشيع بين قسمات وجهها ، وهى تقول :

– هذا صحيح . . عندما يريد الله أن يسهلها ، فعلينا أن نلغى كلمة « كيف » من اللغة . . أين هذا المسكن يازكى ؟

– فيلا رائعة عند أطراف مدينة المهندسين .

فى طرفة عين من الزمن ، أحست عائدة بوجهها يسخن ويحتقن ، وبأطرافها تبرد حتى تكاد تتجمد ، وبعرق غزير يبلل كفيها ، وقطراته تتساقط من بين أصابعها . . متناقضات غريبة ، حادة ، لا يمكن أن تجتمع قط إلا فى حالة اختلال أجهزة الجسم البشرى وغدده اختلالا مدمّرا ، يمكـــن أن يودى بحياة صاحبه . . وأحست بأعصابها تكاد تخونها فتتخلّى عنها . . ولكنها تماسكت ، وسألته فى هدوء :

– مدينة المهندسين ؟

– تصورى !

– أليست بعيدة ؟ . . أعنى منطقة بعيدة . .

– لا تبعد عن الجامعة – مقر عملنا – بأكثر من بضعة كيلومترات ، ونحن نملك سيارتين . . سيارتى وسيارتك التى سيهديك الوالد إياها هذا الأسبوع ، كما سمعت منه .

– وموحشة . .

– العمران يزحف هناك ، إلى كل شبر من الأرض يا عائدة . . اسمعى . . !

– نعم . .

– شاهديها أولاً ، وإذا لم تعجبك فلن نخسر إلا الجنيهات العشرة التى تقاضاها البواب . .

* * *

لم تحاول عائدة أن تطيل الجدل حول صلاحية هذا المسكن الذى يتحدث خاطبها عنه . . خيل إليها أنه قد يسألها : لماذا تخشين سكنى مدينة المهندسين ؟ . . هل تصورت أننى أعرض عليك سكنى « الفيلا » التى ارتكبت فيها الجريمة التى ظلت حديث الناس والصحافة أسابيع متواصلة ، فى شهر نوفمبر الماضى ؟ اطمئنى . . فأنا أعرف أنك بطلة هذا الحادث ، ولا يمكن أن أعرض عليك هذا المسكن لنبدأ فيه حياتنا السعيدة ! ! . . وأطرقت تفكر . . أيمكن أن يكون هو المسكن ذاته الذى . . ؟ !

ولم تجرؤ على تكملة العبارة حتى فيما بينها وبين نفسها . .

نهار أسود . . مستحيل ! . . طبعاً مستحيل . .

ولكنها – مع ذلك – كان عليها أن تجاريه ، ما دامت الكلمة فى النهاية ستكون كلمتها دون غيرها ، فوافقته على أن ترى هذه « الفيلا » .

وحملتهما السيارة – ووالدتها معهما – إلى مدينة المهندسين . . إلى أطراف مدينة المهندسين . . انحرف زكى بالسيارة يميناً ، ثم يساراً ، ثم يمينا . . ثم سار فى طريق مستقيمة مرصوفة – وكانت هذه الطريق قد رصفت خلال الشهور التى انقضت منذ ليلة الجريمة – إلى أن وقف بالسيارة أمام باب « فيلا » جميلة . .

« فيلا » جميلة حقيقة . .

وقالت الأم بإعجاب : « الله . . هذه فيلا رائعة . . حديقتها جنة ! »

وابتسم زكى وهو يقول لوالدة عروسه : « عندما تشاهدينها من الداخل ستزدادين إعجابا بها » .

نظرت عائدة إلى واجهة « الفيلا » ، وسألت نفسها : « هل تكون هى ؟ »

إنها لم تر واجهتها فى تلك الليلة الملعونة ، فقد كانت فى حالة غيبوبة ، عندما دخل بها عبد الحميد ، حاملا إياها فوق ذراعيه . . إنها تتذكر منظرها من الداخل ، كما تتذكر منظر باب الخدم المؤدى إلى الجزء الخلفى من الحديقة . . أما واجهتها ، فإنها لم ترها . .

تقدم البواب من زكى رافعاً يده إلى جبينه بالتحية ، قائلاً : « أهلا سعادة البك » .

أجابه زكى : « أهلا بك يا خليفة . . افتح فالهانم تريد أن ترى الفيلا من الداخل !

أسرع البواب نحو الباب والمفتاح فى يده . .

الأم نظرت إلى ابنتها ، وهى تقول : « المدخل جميل جداً يا عائدة . . أليس كذلك ؟ »

ولكن عائدة كانت تسير كالمسحورة . . كانت تبدو كالذين يسيرون نياماً ، فيبدون فى خطواتهم كالأشباح الهائمة . وأجابت بهمهمة غير واضحة . . وأدخلت ساعدها تحت ذراع أمها تتشبث بها ، كأنها تحتمى من . . تحتمى من ماذا ؟

لا تدرى . . إنها لا تدرى . . فهى خائفة . . من غيب

مجهول ، تشعر به ولا تراه . . بل إنها تكاد تراه ، وإن كانت لا تراه !

إنها لا تعلم – حتى هذه اللحظة – إن كانت هذه « الفيلا » هى بذاتها التى شهدت فيها ، وعاشت بين جدرانها ، أسوأ وأسود لحظات حياتها . . أم أنها « فيلا » غيرها . . إنها لا تدرى . .

أدار البواب المفتاح فى ثقب الباب المصنوع من خشب البلوط ، فى لون حبة البن المحروقة ، والمصمَّم على الطراز الإسلامى أو القبطىّ لا تدرى . . إنه يبدو كما لو كان باب مسجد ، أو باب كنيسة !

منظره لم يكن مريحاً للعين ، إن لم يكن قابضاً للنفس . .

ودفع البواب المصراع الأيمن ، وهو يقولُ للضيوف : « تفضلوا ! »

وأفسح زكى الطريق لعروسه ولوالدتها ، فتقدمتها الأم ، وتبعتها عائدة ، ووراءها زكى الذى راح يثرثر شارحاً :

– هنا المدخل . . وهنا قاعة المائدة . . وهنا قاعة الاستقبال . . وهذا الممر يؤدى إلى أربع حجرات . . اثنتان منها فى الناحية القبلية للشتاء ، والاثنتان الأخريان فى الناحية البحرية للصيف .

وكانت الأم تعلق – بين لحظة وأخرى – مبدية إعجابها الكبير باتساع « الفيلا » ، وجمال هندستها . . بينما كانت عائدة تهيم فى عوالم أخرى ، تكاد تهاويلها تصل بها – فزعاً – إلى حافة الجنون !

إنها « الفيلا » ذاتها . . فهذا المدخل بذاته تعرفه جيداً ، إذ تفحصته بنظرة عجلى ، لحظة أن جلجل جرس الباب ، وهى فى طريقها مع اللص إلى المطهى ، ليخرجها من الباب الخلفى ، المخصص للخدمة وللخدم . .

وقادهما زكى فى الممر الذى يفضى إلى الحجرات الداخلية ، وهو يقول :

– أعتقد أن هذه غرفة النوم الرئيسية . . تفضلى يا فوقية هانم . . تفضلى يا عائدة . . أتريان كم هى متسعة ورحبة ؟

ودخلت عائدة متشبثة بذراع أمها . . وخيل إليها أنها تعود بمعجزة ، إلى قاع الدوامة التى تدور بها فى متاهات المحيطات السبعة . . جدران الماء العالية المخيفة المظلمة تحوطها من كل جانب ، وتطبق عليها . . إنها لا تستطيع أن توقف دوران هذه الدوامة المخيفة . . لا تستطيع أن تتسلق هذه الجدران المفزعة . . هل يستطيع بشر أن يتسلق الماء ؟

إنها كمن يرى حوتاً هائلاً – فى ضخامة سفينة – يقترب منها ليبتلعها فى ظلام الماء . . كمن يرى أخطبوطاً بشعا ، مفزعاً ، مخيفاً ، مقبلاً نحوها . . ولن تمضى لحظات حتى ينقض عليها ليعتصرها بين أطرافه الرهيبة ، قبل أن يفترسها . .

واستعادت – للحظة – ذلك المنظر المروع الذى حفر فى ذاكرتها ، ولن تستطيع قوة أن تمحوه حتى تلفظ آخر خفقة من خفقات حياتها . . منظر هذه الغرفة بما كان فيها من أثاث وستر ، وطنفسة تكسو أرضها . . وفوق هذه الطنفسة يرقد « عبد الحميد لطفى » . . والخنجر مغروس فى صدره ، والدم متجلط من حوله !

كل هذا وزكى يثرثر بمزايا الغرفة ، وأم عروسه تستمع إليه . . إلى أن التفت إلى عائدة يسألها : « أليس كذلك يا عائدة ؟ »

أجابته فى صوت كأنه آت من واد ضيق عميق ، لا نهاية له ، بين سلسلة من جبال شاهقة ، تخترق قممها السحب العالية :

– يخيل لى أنها قابضة للنفس . . غير مريحة !

ابتسم زكى وهو يقول : « غريب أنك شعرت بهذا ! »
سألته والدتها : « ولم ؟ . . أنا أيضا بمثل ما شعرت عائدة شعرت » .
– أقول لكما شيئاً . . هذه « الفيلا » قتل فيها صاحبها .
قالها وهو يضحك
وأطلقتها الأم بلا وعى : « يا مصيبتى ! ! »
وأكمل زكى حديثه : « قُتل فى هذه الغرفة بالذات . . كان يجب أن أخبركما ، إذ لا يجوز أن أخفى عنكما شيئاً » .
جاهدت عائدة لتبتسم ، وهى تقلد صيحة الأطفال المشهورة :
« يا مىّ »
وضحكت ، فى محاولة منها لإخفاء انفعالها ، وهى تقول :
– الغريب أنى أحسست ، منذ الوهلة الأولى ، برهبة غير عادية . . فالباب الخارجى يوحى – بمجرد نظرة إليه – بأنه يخفى وراءه أسراراً رهيبة !
ومطت شفتيها ، وهى تقول : « لنخرج بسرعة من هذه الغرفة المقبضة ، حتى لا نفاجأ بشبح صاحبها متسربلا بأكفانه ، يسألنا ماذا نصنع هنا . . هيا بنا يا ماما ! »
وخرج ثلاثتهم من الغرفة ، إلى الممر الذى يؤدى بهم عائدين إلى ردهة المسكن . . ومن ردهة المسكن ، لاحت منها التفاتة إلى جهة المطهى ، فسألت ، محاولة أن تغلف صوتها بكثير من عدم الاهتمام : « هنا المطهى ؟ »
وتصور زكى أنه قد يستطيع إثارة اهتمامها من جديد ، فيقنعها بقبول هذا المسكن ، فقال لها : « مطهى ممتاز والله يا عائدة . .

متسع ، مريح ، مجهَّز بالأرفف الغائره فى جدرانه ، والأبواب تحجبها وتحميها . . تفتح وتقفل بالانزلاق داخل الجدران ، على عجلات صغيرة ، حتى لا تزحم من يكون بداخله عند فتحها أو غلقها . . بابه يفضى إلى الجزء الخلفى من الحديقة ، ليسهل الخدمة . . يعنى من كله . . تعالى لمشاهدته ! . تفضلى يا فوقية هانم ! »

وتقدمهما نحو المطهى ، ثم أفسح لهما الطريق لتتقدماه . . فدخلت الأم ، ثم تبعتها عائدة . . وراح زكى يثرثر من جديد . . الأم تستمع له ، وعائدة تدور بعينيها بين أرجاء المطهى ، الذى وقفت بين جدرانه نصف دقيقة ، فى ظلام تلك الليلة المروعة ، عندما تركها اللص ليحضر لها حقيبة يدها وقد نسيتها فى حجرة الجريمة . . نصف دقيقة مر بها كأنه دهر بأكمله !

راحت تدور بعينيها ، فاستعرضت مكوناته الثابتة . . جدرانه ، نافذته العليا ، أبواب الأرفف الغائرة فى الحوائط ، والمفاتيح النحاسية بارزة منها على أبعاد متساوية . .

ثم الباب . . من هذا الباب تسللت مع اللص ، فى تلك الليلة ، التى يبدو لها أن أحداثها ستظل تطاردها إلى نهاية عمرها . . وإلا ، فكيف أمكن لخاطبها أن يصل إلى هذه « الفيللا » — هذه « الفيللا » بالذات — ليقترحها عليها مسكناً تبدأ فيه حياتها معه ؟ !

وجاءها التفسير فى الحال . . التفسير جاءها من خاطبها ، فقد سمعته يقول لوالدتها :

— لا أخفى عليكما يا فوقية هانم . . هذه « الفيللا » لم يسكنها أحد ،

منذ مقتل صاحبها بداخلها ، فى شهر نوفمبر الماضى . . حوالى ثمانية أشهر . فقد أخبرنى البواب أن كل من سمع بهذا الحادث أحجم عن سكناها ، مهما كان متحمساً فى البداية . . وأنتما تعرفان أزمة السكن الخانقة .

وأضاف زكى ، بعد لحظة : « كان حادثاً مشهوراً ، أفاضت الصحف فى ذكر تفصيلاته فى حينه . . وكانت بطلته امرأة من نوع معين ، أتحرّج من ذكر صفته فى حضرتكما ، صوناً لحيائكما . . كما أنها كانت من محترفات الجريمة ، فقد سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب بعض نفائس أخرى لا تقل قيمتها عن ألفين آخرين » .

وسألته الأم : « أذكر أننى قرأت شيئاً كهذا فى الصحف . . هل قبضوا على القاتلة ؟ »

أجابها زكى : « المدهش أن المحققين ورجال المباحث لم يهتدوا إليها حتى اليوم . . ولا أظن أنهم سيتمكنون من هذا ! » .

سألته عائدة فى هدوء « ولِمَ ؟ »

– كانت فى منتهى الحرص ، فلم تترك أية بصمة تقود إليها . . ولما أعياهم البحث دون جدوى ، حفظوا التحقيق فى الجناية ، لعدم العثور على الفاعل ، وقُيِّدت ضد مجهول . . . وما دام التحقيق قد حُفِظ ، فقد مات الموضوع تقريباً » .

ثم توجه بحديثه إلى عائدة : « لعلك قرأت أنباء هذا الحادث ، فى حينه ، يا عائدة ؟ » .

أجابت بصوت كسلان ، لا يعبر عن شىء : « أذكر شيئاً كهذا » .

وبلا وعى منها قالت ، وهى تشير إلى الباب المؤدى إلى الجزء

الخلفي من الحديقة : « إلى أين يفضي هذا الباب ؟ »

أجابها بسرعة : « إلى الجزء الخلفي من الحديقة . . ويمكن زراعته بالخضر ، التي تغنينا عن شرائها من السوق . . فهي مساحة لا بأس بها » .

وأدار المقبض النحاسي المستدير ، وجذب الباب إليه ، فإذا بالحديقة أمام أعينهم . .

تقدمت عائدة نحو الباب ببطء . . ثم خرجت ، وهبطت الدرجات القليلة المؤدية إلى الحديقة . .

لحظات هائلة عاشتها ، وهي تتلفت حولها . . إلى جدران « الفيللا » . . إلى الحديقة . . إلى السور المحيط بها . . إلى الباب الذي مرقت منه إلى الخلاء الواسع ، في تلك الليلة المخيفة ، ويدها في يد اللص ، حرصاً منه على ألاّ تتعثر قدمها في الظلام . . إلى أن وصل بها إلى العمران .

وظنها زكي تستعرض الحديقة وخضرتها وجمالها ، وهيأ له الوهم أنها راجعت نفسها فاقتنعت بصلاحية « الفيللا » لسكناهما ، فسألها : « هل غيرت رأيك ؟ »

جاهدت عائدة لتنسج ابتسامة على شفتيها ، وهي تقول :

– سأكتب إلى شركات السينما الأمريكية ، التي تخصصت في إنتاج أفلام « فرانكشتين » ، مقترحة عليها تصوير أحد أفلام هذه الشخصية الأسطورية في هذه « الفيللا » . .

وضحك زكي . . وفهم أن عروسه تعتذر بلطف عن سكنى هذه الدار

* * *

وهم ينصرفون من حديقة « الفيللا » ليستقلوا السيارة ، عائدة بهم إلى « جاردن سيتى » ، قالت الأم :

– أنا شخصيا ، لا أرى ضرورة لأن تبحثا عن مسكن . . فان شقتنا فى « جاردن سيتى » مؤلفة من تسع حجرات . . المبانى القديمة الفاخرة . . خشب القرو يغطى جدران الغرف إلى أكثر من نصف ارتفاعها . . حمامان فاخران ، ومطهيان واسعان ، وشرفات طويلة عريضة ، تطل على رؤوس الأشجار من جهة ، وعلى النيل من الجهة الأخرى . . فلم لا تقيمان معنا ؟ . . شقتنا أكبر وأوسع وأرحب من شقتين . . بلد ، كما يقولون . . ثم إنكما ستكونان فى عملكما أثناء النهار ، فمن سيرعى شئونكما ، ويصبح مسئولاً عن المنزل فى غيابكما ، وأزمة الخدم أصبحت تنافس أزمتى المواصلات والإسكان بعد أن فتحت المدارس والجامعات للجميع !

وكان الرأى سليما ، والفكرة لامعة ، والاقتراح فى محله وفى أوانه . . والأب – الدكتور محمود – والأم – فوقية هانم – شديدا التعلق بابنتهما الوحيدة . . وكان أكثر ما يشفقان عليها منه ، أن تتعرض لمتاعب الإقامة فى مسكن خاص بها : من الوحدة ، وندرة الخدم ، والحيرة فيمن يشرف على هذا المسكن بالمعنى الكامل لكلمة الإشراف . . فلم يكد الدكتور محمود يستمع لاقتراح زوجته ، حتى صفق – على طريقة ابنته – معجباً به ، متحمساً له ، وقال :

– غدا أصحبك يا عائدة – وماما معنا – إلى « يونتر يمولى » لتختارى أثاث أجمل غرفة نوم تليق بعروس مثلك ، لنؤثث به إحدى الحجرات المطلة على النيل . .

وابتسم الوالد وهو يضيف

– وإن كان صعباً أن نعثر على ما يليق بك . . ولا عند «كريجر» فى باريس !

ابتسمت عائدة ، وهى تقول لأبيها : « شكراً » .

– وهذه الغرفة ستكون هدية منى ،لا يناقشنى زكى بشأنها . . هذا إذا لم يكن يضايقك أو يضايق زكى أن تقيما معنا . . ماما . . وأنا .

انتقلت عائدة من مكانها ، لتجلس على ركبتى والدها ، ولتضم رأسه إلى صدرها ، ولتقبله وهي تقول فى صوت تقطر البسمة منه : « شكراً يا بابا . . أنت لا تستطيع أن تتصور – ولاماما تستطيع كذلك أن تتصور – مدى الهم الذى كنت أنوء تحت ثقله ، كلما فكرت فى اليوم الذى أترككما لكى أعيش وحدى ! » .

بادلها والدها قبلتها ، وهو يقول فى حنان بالغ : « لم أكن لأتركك لتقيمى وحدك أبداً . . وكنت أعدها لك مفاجأة ، ولكن ماما سبقتنى - وضيعت علىّ سعادة هذه الفرصة » .

وانتقلت عائدة لتجلس على ركبتى والدتها تضمها إلى قلبها ، وتقبل شعرها الفاحم الغزير ، الذى ورثت ابنتها إياه مع بقية مفاتنها .

وقام الدكتور محمود عن مقعده وهو يقول لزوجته ولابنته : « لحظة واحدة . . عائدة لها عندى هدية صغيرة ، سأعود بها من غرفتى بعد نصف دقيقة ! » .

وبارح الوالد الحجرة ، تاركاً زوجته وابنته فى حيرة من أمر هذه الهدية الصغيرة ، التى يتكلم عنها . . ولم تكد عائدة تسأل والدتها :

« أية هدية يا ماما ؟ » . . حتى عاد والدها ، وبين أصابعه حلقة أنيقة من الفضة ، تضم مفتاحين صغيرين ، قدمها لابنته وهو يقول :

– مفتاحا سيارتك يا عائدة . . سأصحبك عصراً إلى وكيل الشركة المنتجة ، لتتسلميها بنفسك ، ولتقوديها بنفسك ، لأننى لم أشأ أن يقودها غيرك قبلك . . ولا حتى أنا . . مبروك !

وهبت عائدة عن ركبتى أمها ، تصيح والفرحة تهزها من أعماقها : « بابا . . » .

وارتمت فى حضنه تقبله . . بينما قال :

– لم أشأ أن أهديك إياها وأنت طالبة ، حتى لا يُنْظر لك فى الكلية نظرة معينة ، كفانا الله شرها . . إلى جانب أن والدتك كانت تخشى عليك من الحسد . . اسأليها ، هى التى طلبت منى تأجيل تقديمها لك إلى ما بعد أن تتخرجى ، خوفاً عليك من العين . . وقد كان فى نيتى أن أقدمها لك بمجرد حصولك على الثانوية العامة والتحاقك بكلية الحقوق . .

وابتسم الوالد ، وهو يضم ابنته إلى صدره . .

– لا أعرف كيف أقول لك شكراً .

– لا تقوليها . . فأنا – وما ملكت يداى – ملك لك . . ولهذا المَلَك الذى أهدانى إياك !

وأومأ مشيراً إلى زوجه الجالسة ، تضع ساقاً على ساق ، كمملكة على إمبراطورية مستقلة ، ذات سيادة ، لها علَم ، ولها نشيد . . .

زوجها كان دائماً العَلَم ، وابنتها النشيد .

١٢

في حديقة فندق « البوريفاج » في الإسكندرية ، لاحت « ماجدة » عاملة التليفون ، وهي تلوح من بعيد مشيرة إلى عائدة ، التي كانت تجلس بجانب زوجها زكي ، أمام مائدة صغيرة عليها أقداح الشاي . .

واقترب أحد القائمين على الخدمة من زكي وعائدة ، وهو يقول :

– مصر على التليفون تطلبكما يا زكي بك ، وهاهي الآنسة ماجدة تشير إليكما لتسرعا !

وأسرعا معاً إلى حجرة التليفون . . وكان الدكتور محمود وفوقية هانم على الجانب الآخر عبر الأسلاك . .

تلقت عائدة من والدها أنباء سارة . . فقد وصل خطاب اختيارها وتعيينها معيدة بكلية الحقوق ، وتسلمه نيابة عنها ، وسمح لنفسه بأن يفضه ، فقد يكون فيه ما يوجب سرعة التصرف . . وقد صح تقديره ، فإن الكلية تطلب من عائدة أوراقاً عددتها ، وهي قائمة معروفة لكل من التحق أو سيلتحق بخدمة الدولة ، تبتدئ بشهادة الميلاد ، وتنتهي بشهادة تحقيق الشخصية . . وبين الشهادتين أكثر من شهادة ، وأكثر من وثيقة ، وأكثر من مستند .

وأخبرها والدها بأنه لم يشأ أن يزعجها ، ولا أن يقطع عليها وعلى زكي شهر عسلهما السعيد ، فتولى استخراج كل هذه الشهادات المطلوبة ، ولم يبق إلا شهادة تحقيق الشخصية ، وهي الوحيدة التي لا يملك أن ينوب عنها في استخراجها ، لأنها تستوجب وجودها بشخصها لأخذ بصماتها . .

وطلب منها ومن زكى ألا يقطعا إجازتهما ، فإنها تستطيع أن تبقى فى الإسكندرية حتى قبل بدء الدراسة فى الجامعة بأيام ، ثم تعود على مهلها ، لتستخرج الشهادة . . ولن يضيرها أويعوقها عن بدء عملها ، إذا قدمت الأوراق تنقص ورقة واحدة ، مع تعهد بتقديمها فى أجل قريب . . وقال لها أيضاً إنه التقى – فى اليوم السابق بأستاذها الدكتور الريدى ، الذى قال له إنه لن ينسى ما عاش – وإن عاش ألف سنة – تلك اللحظة النادرة ، عندما دعى – من بين كل المدعوين لشهود زفافها – ليوقع شاهداً على وثيقة زواجها . . أحس الدكتور الريدى أنه يوقع وثيقة زواج بنت من بناته !

* * *

أمضت عائدة فى الإسكندرية الأسابيع المتبقية على بدء افتتاح الجامعة ، ثم عادت مع زوجها إلى القاهرة .

فى اليوم التالى لوصولها ، توجهت إلى كلية الحقوق لتحية زملائها وزميلاتها وأساتذتها ، ثم توجهت إلى الموظف المختص بتسلم الأوراق التى كُلِّفت بأحضارها . فاستقبلها استقبالاً حاراً ، حافلاً وهو يقول :

– مبروك يا أستاذة عائدة . . كلية الحقوق شرفت والله العظيم ، شرفت بتخريج حضرتك ، ولهيئة التدريس أن تفتخر بضمك إليها . .

وأحست عائدة بالخجل يبهظها ، فهمست فى حياء :

– شكراً يا أستاذ فكرى . . أشكرك من كل قلبى .

وراح يؤكد مشاعره نحوها بقوله :

– لقد كان الإجماع رائعاً على اختيارك معيدة من معيدى ومعيدات

الكلية . . لم يعترض عضو واحد من أعضاء المجلس على اختيارك بل كان إجماعاً . . كان إجماعاً بالإجماع والله العظيم ! .

وابتسمت عائدة للتعبير الغريب . . إنها – لأول مرة – نسمع عن إجماع بالإجماع . . لو أن هناك إجماعاً بالإجماع ! . . لعله حماس الموظف المختص ، ورغبته الصادقة فى التعبير لها عن فرحته بنجاحها الباهر ، وباختيارها لوظيفة لا يقع الاختيار على من يشغلها إلا بعد أن تتوفر له ، وفيه ، شروط صعبة ومعينة . .

واتسعت ابتسامة الأستاذ فكرى ، وهو يقول :

– أنا فى خدمتك يا أستاذة عائدة . . الكلية كلها فى خدمتك . . مرى بما تشائين !

– العفو يا أستاذ فكرى . . إنما جئت لأقدم الأوراق المطلوبة .

– فوراً . . هذا ملف أعددته لك منذ شهر والله ، انظرى هذا اسمك مكتوب عليه . . الأستاذة عائدة محمود فهمى . . هل الأوراق معك ؟

– معى يا أستاذ فكرى . . هاهى ذى فى هذا الظرف ، ولو أنها فى الحقيقة تنقص مستنداً واحداً . .

ابتسم الأستاذ فكرى وهو يقول : « أعرفه . . إنها شهادة تحقيق الشخصية . . يسمّونها الصحيفة الجنائية ! » .

ابتسمت عائدة وهى تقول : « كيف عرفت أنها المستند الوحيد الناقص ؟ »

– لست وحدك التى أحضرت أوراقها تنقصها هذه الشهادة بالذات . .

– صحيح ؟

– إجراءات تصعد بروح الإنسان إلى أنفه ! .
– لست وحدى إذن . .
– كثيرون غيرك مثلك .
– والعمل ؟
– لا يهمك . . سأتسلم منك هذه الأوراق ، وسأعطيك إيصالاً بها ، ولا يبقى إلا شهادة الصحيفة الجنائية ، وشهادة التخرج « الليسانس » . وهذه الأخيرة . لست مسؤولة عن التأخير فى تقديمها ، مادامت الكلية لم تسلمك إياها بعد ولن يكون هذا قبل شهور . .

وضحك الأستاذ فكرى من قلبه ، وهو يقول فى ثرثرة الإنسان المتوكِّل :
– « س » سؤال : لماذا يتساهلون فى عدم تقديم شهادة تخرج ؟ . « ج » جواب : لأنهم – أعنى الكلية – جهة إصدارها ، ويعرفون أن العيب عيبهم ، وأن التأخير منهم . . « س » سؤال : فلماذا إذن يتشددون ، إذا كان التأخير متعلقاً بغيرها من المستندات ؟ . . « ج » جواب ، لا جواب . . ! » .

وضحكت عائدة ، وشاركها الأستاذ فكرى الضحك ، وهويقول :
– على مهلك يا أستاذة عائدة ، ولا يهمك . . إنك ستحضرينها يوماً ما ، هذا ما لاشك فيه . . فهل طارت الدنيا . . أم طارت الدنيا ؟ !

وتناول منها الشهادات والمستندات التى كانت تحملها ، وراجعها مقارناً إياها بقائمة الحصر التى أمامه ، وسلمها إيصالاً بالاستلام ؛ فشكرت له رقته البالغة ، ثم ودعته ، وهو يقول من قلب صاف : مع السلامة يا أستاذة عائدة . . مع السلامة .

ثم بينه وبين نفسه ، وهى تبتعد : « آه . . يارب يامنى يابنتى . . يارب أعيش حتى أراك مثل الأستاذة عائدة . . ليس بكثير على الله يا ابنتى . . ليس بكثير على الله ! » .

* * *

عائدة زينة كلية الحقوق . .

ليس بين هيئة التدريس وحسب ، بل بين الطالبات والطلبة ضمناً . . فهى تقارب الكثيرين والكثيرات منهم ومنهن سناً . .

الكل يحبها ويحترمها ، ويسعى إلى مودتها ، وإلى الإعراب عن حبه لها وتقديره واحترامه إياها . . وهى ، بلطفها ورقتها وشفافيتها ، استطاعت أن تجمع الجميع حولها . .

وكان زوجها – وهو ضمن أعضاء هيئة التدريس – محسوداً ، لأنه كان أسبق الجميع إليها ، ففاز بها !

وعائدة تؤدى عملها سعيدة بلا حدود ، فهى لا تزال تفيض شباباً ، وصحة وعافية ، وحماساً ، وإقبالاً على الحياة . . وهى ترى أن تحقق ذاتها ، وتثبت لطلبتها ولأساتذتها أن اختيارها معيدة كان اختياراً صائباً ، وفى محله ، وأنها أهل لهذه الوظيفة . . وقد حققت فى شهور قليلة ، ما صممت على تحقيقه منذ وضعت قدميها على مدخل المدرج – لأول مرة – لتعيد على الطلبة المحاضرة التى سبق للأستاذ المحاضر أن ألقاها .

وعائدة بحكم تربيتها منذ طفولتها – وقد تعودت النظام والترتيب ودقة المحافظة على المواعيد – عملت على أن تقسم وتنظم أوقاتها خلال ساعات اليوم ، بليله ونهاره . . فاستطاعت أن توفق بين عملها والتزامها

نحوه من جهة ، ونحو زوجها وأبويها من جهة ثانية . .

كانت تعيش ملء شبابها وجمالها وآمالها . . ملء صحتها وعافيتها ونشاطها وعنفوانها . . كانت تعيش ملء حياتها جميعاً ، طولا وعرضاً ، بين زوج يحبها وتحبه ، وأبوين يتمنى كل من يراهما لو كان ابنا لهما أو لو كانا أبويه . .

وفى ذات يوم ، مر الأستاذ فكرى بأعضاء هيئة التدريس الجدد ، الذين عينوا مع عائدة – أو الذين عينت عائدة معهم – ورجاهم ضرورة استكمال الشهادة التى تنقص أوراق كل منهم بلا استثناء . . وهى شهادة الصحيفة الجنائية ، فوعدوه بأنها ستكون على مكتبه خلال أسبوع ، واتفقوا فيما بينهم على أن يلتقوا فى الحادية عشرة ، من صباح اليوم التالى ، فى حجرتهم الخاصة فى الكلية ، ثم ينتقلوا جميعاً إلى إدارة تحقيق الشخصية ، للانتهاء من هذه المهمة . . ومن يملك منهم سيارة ، فليحمل معه من الزملاء أو الزميلات من لا سيارة له . . والتقوا فى الموعد المتفق عليه – ضحى اليوم التالى – وتوجهوا معاً فى سيارتين ، كانت سيارة عائدة واحدة منهما ، وانتهوا من المهمة فيما لا يزيد على نصف الساعة . .

وفى طريق عودتهم إلى الجامعة ، دعتهم عائدة لتناول شراب مرطب ، مع قطعة من الحلوى ، فى مقصف الطابق الأسفل لفندق « شيراتون » . . ثم عادوا إلى الكلية ، حيث انصرف بعضهم إلى عمله . . وعاد بعضهم إلى بيته ، لأنه لم يكن لديه عمل فى ذلك اليوم . . وكانت عائدة من هذا البعض .

١٣

عائدة ، عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس .

قبل حلوله بأسبوع ، قال لها أبوها :

– هذا أول عيد من أعياد ميلادك ، يحل بعد زفافك وتعيينك معيدة فى الكلية ، التى أمضيت فى مدرجاتها – طالبة – أربعة أعوام من عمرك . . ولهذا يجب أن نحتفل به احتفالاً حافلاً . . سألتها والدتها : « أتحبين أن نقيم هذا الحفل هنا فى البيت ؟ . . أم فى مكان آخر ؟ . . أحد الفنادق الكبرى مثلاً ؟ »

ابتسمت عائدة . . وكان زوجها زكى يستمع إلى الحديث صامتاً ، وهو يبتسم دون أن يعلق بكلمة واحدة . . إن والدى زوجته يقترحان حفلاً لا تقل تكاليفه عن مائتين أو ثلثمائة جنيه . . رقم يحدده عدد المدعوين ، إذا أقيم فى أحد الفنادق الكبرى ، كما تقترح والدتها . . « مريديان » مثلاً ، أو « هيلتون » ، أو « شيراتون » . . وهذه لغة لا يحسن التعامل بها . . فأحس بأنه يجب أن يكون مستمعاً فقط . . أن يكون مستمعاً ، وليس أكثر من مستمع . .

وأجابت عائدة والدتها : « والله يا ماما . . أنا لا أحس بأننى على سجيتى وراحتى الكاملة – فى مثل هذه المناسبات – إلا هنا . . فى بيتنا ! »

ابتسم والدها وهو يقول :

– الاختيار متروك لك يا عائدة .

– أنا شخصياً أفضل البيت .

– خلاص يا محمود ! . . .

قالتها الأم ، ثم أضافت : « كما تحبين يا عائدة . . سنقيم الحفل هنا ، وسأوصى هيلتون أوشيراتون أو مريديان – أيها يقدم لنا خدمة أسرع وأسهل – بإعداد كل شىء وإحضاره يوم الخميس القادم . . كم عدد مدعويك ؟ »

هزت عائدة كتفيها فى طفولة عذبة ، وهى تقول :

– لا أدرى يا ماما . . ولكنى بالتأكيد – إن شاء الله – سأدعو الدكتور الريدى وحرمه .

ابتسم والدها ، وهو يقول مدللا إياها :

– لا تفوتك شاردة من الذوق ياعائدة !

ردت عائدة التحية إلى والدها : « تربيتك يا بابا ! »

ولكن الوالد أشار إلى زوجه ، وهو يقول :

– بل تربية « ماما » فهى أم الذوق كله . . احصرى عدد مدعويك ، وأخطرى ماما به . .

ثم بابتسامته العذبة تحول إلى زوجه قائلاً :

– وأنت يا « ماما » . . أضيفى إلى هذا العدد ما يساوى عشرين فى المائة منه احتياطاً .

* * *

عائدة . . عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس .

اليوم خميس . . ولا محاضرات عليها أن تعيدها ، بعد أن يلقيها الأستاذ المحاضر ، غير محاضرة واحدة ، موعدها الحادية عشرة ظهراً ،

تعود بعدها إلى البيت .

فى الصباح الباكر ، قبلها والدها ، ورشق فى صدر ثوبها رصيعة[١] منمنمة من البلاتين ، يتوسطها فص من الماس ، وهو يقول لها : « كل سنة وأنت طيبة ! »

وقبلتها والدتها ، وعلقت بأذنيها قرطين ، وحول عنقها عقداً . . وكان القرطان والعقد توائم الرصيعة ، فأصبحت القطع الأربع طاقماً كاملاً متماثلا ، لا يبيعه أى جوهرى إلا صفقة واحدة .

عائدة أدركت هذا من نظرة . فهى خبيرة بهذه الأشياء الثمينة الجميلة ، وخبرتها من خبرة والديها . . فلمعت الدموع فى عينيها ، وأمها تقبلها قائلة : « كل سنة وأنت طيبة يا عائدة ! »

ثم قبلها زكى – زوجها – وقدم لها قارورة عطر فاخر ، كانت قد شاهدتها مرة خلف واجهة أحد المتاجر الكبرى ، وأحس لحظتها أنها ضمن عطورها المفضلة ، فاشتراها فى اليوم التالى ، وحفظها فى درج مكتبه بالكلية ، إلى أن يحين عيد ميلادها ليقدمها لها . . وكان يعرف أنه بعد أيام .

قدم لها زجاجة العطر الفاخر ، وهو يقول : كل سنة وأنت طيبة ! »

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم . . الرابع من مارس

ومنذ السابعة مساء ، بدأ المدعوون يتوافدون على الدار . . لم يزد عددهم على نحو الخمسين ، بين رجل وسيدة وفتاة ، من الأقارب والأقرباء والأصدقاء ، والزملاء والزميلات . .

---

(١) الرصيعة أى « البروش » – « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور

كانت عائدة فى استقبالهم . . والأم ترحب بهم . . والأب يحيي ويجامل ويبتسم ، سعيداً بابنته – وحيدته – يدعو لها من قلبه دعوات آباء الدنيا بأسرها لبناتهم وأبنائهم . . .

ثم انفرد بالدكتور الريدى – أستاذ ابنته ، وشاهد عقد زواجها – وراح يتحدث إليه حديث القلب للقلب ، فهو يعرف مدى حب هذا الرجل لابنته ، وتقديره واحترامه إياها ، كما يعرف كيف تبادله ابنته صدق هذه المشاعر . .

وأشارت الأم إلى ضيوف ابنتها – وقد اكتمل عددهم – لينتقلوا إلى موائد الشاى الصغيرة الأنيقة ، المتناثرة بذوق عالٍ فى بهوين واسعين متصل كل منهما بالآخر . . حول كل مائدة أربعة مقاعد . . وفى الصدر مائدة طويلة ، طويلة ، طويلة . . صفت فوقها ألوان الحلوى ، والفاكهة وعصيرها ، والفطائر والشطائر والمملحات ، وغيرها وغيرها مما يحار فيه الضيف ، وقد وقف خلف هذه المائدة الطويلة ، الطويلة ، الطويلة ، ستة شبان فى ثياب مُنَشَّاة أنيقة ، لخدمة الضيوف . . ما على الضيف إلا أن يشير إلى ما يريد ، فيسرع أحد هؤلاء الشبان إلى ملء صفحة بكل ما يريد ، يقدمها له . .

* * *

عائدة . . عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس

وقفت أمام كعكة كبيرة تتوسط المائدة الطويلة ، الطويلة ، الطويلة ، وقد رشق فى سطحها أربع وعشرون شمعة صغيرة ، تشير إلى أربع وعشرين سنة تتمها عائدة من عمرها اليوم . . وكانت الشموع من لون واحد . .

اللون الأبيض .

كأنها عروس . . كأن عائدة عروس فى ليلة زفافها !

تقدم والدها فأشعل الشموع الصغيرة ، وأشار لأحدهم ليطفئ نور البهو ، فإذا بالظلام يحيط بالجميع ، ولهب الشموع الصغيرة يتراقص ، فيعكس ظلال الحاضرين – المحيطين بعائدة – على جدران البهو وما به من قطع الأثاث وموائد الشاى المتناثرة . . وإذا بهذه الظلال تتمايل وتتكسر ، ثم تعتدل وتستقيم ، فوق كل ما انعكست عليه ، مع نسمات الهواء الرقيقة ، التى كانت تعبث بلهب الشموع . .

وارتفعت أصوات الحاضرين بالأغنية الإنجليزية المعروفة :

« عيد سعيد لك . .

« عيد سعيد لك . .

« عيد سعيد لعائدة . .

« عيد سعيد لك ! »

وانحنت عائدة على الشموع فأطفأتها ، والجميع يصفقون . .

وأضيئت أنوار البهو ، وعاد الضيوف – كلٌ إلى مكانه – يحمل صحفة ملأى بما اختاره مما على المائدة الرئيسية الطويلة ، الطويلة ، الطويلة . .

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس . .

راحت تمر بضيوفها حول الموائد الصغيرة ، لتسأل إن كانت تستطيع أن تقدم شيئاً لأحد منهم ، فكانوا جميعاً يسألونها أن تجلس معهم قليلاً ، وكانت تحقق لهم رغبتهم وهى تبتسم فى حياء شديد . .

وكانت والدتها تقوم بذات المهمة بين حين وحين ، ثم تعود لتجلس إلى قرينة الدكتور الريدى ، التى صحبته إلى حفل عيد ميلاد أقرب تلميذاته إلى نفسه . .

وكان زوجها زكى يجلس مع والدها والدكتور الريدى ، وقد راحوا يتحدثون فيما يتحدث عنه الناس ، فى مثل هذه المناسبات . .

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس . .

فجأة تسلل أحد الخدم إلى البهو ، واقترب من الدكتور محمود – والد عائدة – وانحنى على أذنه ، وهمس بشىء لم يسمعه غيره ، فقام من فوره مستأذناً الدكتورالريدى وزوج ابنته . . كان هناك ضيف يريد أن يراه ، فقام ليرى الضيف .

فى غرفة الانتظار الصغيرة ، القريبة من باب المسكن ، وجد الدكتور محمود نفسه – وجهاً لوجه – أمام ضابط من ضباط الشرطة برتبة المقدم . . وهبّ الضابط واقفاً بمجرد أن دخل عليه ، وقدم له نفسه :

– أستأذن فى أن أقدم لك نفسى يا سيدى . . أنا المقدم فاروق الحسينى ، من قوة مباحث القاهرة .

أجابه الدكتور محمود فى أدب ملحوظ :

– أهلا بك يا سيادة المقدم . . تفضل . . اجلس !

جلس الضابط وهو يسأل الدكتور محمود :

– هل سيادتك الدكتور – صيدلى – محمود فهمى ؟

– أنا محمود فهمى

– والد السيدة عائدة فهمى ؟ . . أقصد عائدة محمود فهمى . المعيدة بكلية حقوق جامعة القاهرة ؟

– أنا محمود فهمى . والسيدة عائدة ابنتى الوحيدة ، وهى بالداخل مع ضيوفها تحتفل بعيد ميلادها . . هل أستطيع أن أعرف طبيعة المهمة التى من أجلها تشرفنى بالزيارة ؟ . .

– سيدى الدكتور . . إننى فى شدة الأسف ، لأننى – بيقين – قد سببت ، وسأسبب لكم ولكريمتكم إزعاجاً بزيارتى هذه . .

– تكلم يا سيدى . . أرجوك .

أخرج الضابط من جيبه ورقة مطوية ، بسطها وقدمها للدكتور محمود وهو يقول :

– معى أمر من النيابة العامة باستدعاء السيدة عائدة فهمى .

انعقد حاجبا الدكتور محمود ، وانفرجت شفتاه من دهشة مفاجئة ، وهو يقول : « نيابة ؟ ! »

– لأخذ أقوالها . .

– فى أى شىء؟

– لا علم لى يا سيدى .

– سيدى . . أرجوك . . لاتنس أننى أب ، فأرجو منك أن تتكلم . . أستطيع أن أعتبرك فى حكم أخ أصغر لى ، فأرجو منك أن تتكلم !

– أقسم لك . . لو علمت ما أخفيت عنك .

همس الدكتور محمود باسم وحيدته : عائدة ؟ ! »

– أعتقد أنه خير إن شاء الله . . هى موجودة كما قلت لى سيادتك ؟

– موجودة طبعاً ، وليس هناك – مطلقاً – ما يدعو لإنكار وجودها . . هل أستطيع أن أستأذنك لأنهى لها الخبر ، فتستعد فى دقائق لنصحبك إلى النيابة ؟

– بلا أى شك . . تفضل يا سيدى

وبارح الدكتور محمود حجرة الانتظار الصغيرة ، تاركاً فيها الضيف الغريب المفاجئ . . ولم يفته – وهو يتجه إلى مكان الحفل – أن يأمر أحد الخدم بأن يقدم له قدحاً من الشاى وبعض الحلوى . .

وعاد إلى البهو – مكان الحفل – وأشار لابنته – من بعيد – إشارة لم يلحظها أى من المدعوين أو المدعوات ، لتتبعه ، فاستأذنت ممن كانت تتحدث إليهم ، وتبعت والدها إلى غرفة مكتبه . .

غرفة المكتب هادئة لا تصل إليها ضوضاء المدعوين . .

وعندما أغلق الدكتور محمود بابها – بعد أن دخلت عائدة – أصبح الهدوء صمتاً مطبقاً . .

الغرفة لا تضم غيرهما . . الوالد وابنته .

فى لمحة عين ، قرأت الابنة فى وجه والدها شيئاً أقلقها ، وإن لم يخطر لها أن هذا « الشىء » قد يتعلق بها . . فسألته فى قلق ظاهر : « أبى . . ماذا هناك ؟ »

أشار إلى أحد المقعدين أمام مكتبه ، وهو يقول لابنته : « اجلسى يا عائدة ! »

وجلس هو على المقعد المقابل لمقعدها . .

أحست بقلقها يتضاعف ، فعادت تسأل والدها :

– بابا . . هناك شئ ما بكل تأكيد . . أرجو منك أن تتكلم !

سأتكلم بطبيعة الحال يا عائدة ، وإلا ما استدعيتك . . ولو أنى أعتقد أن هناك خطأ ما . .

–ما الخبر ؟

– فى حجرة الانتظار الصغيرة ، يجلس الآن ضابط من ضباط المباحث العامة ، يحمل أمراً من النيابة باستدعائك . .

* * *

فجأة أحست بحلقها يجف . . بغصة تكاد تخنقها . . بالغرفة – بكل محتوياتها – المكتب ، المقاعد ، النوافذ ، الستر ، السقف بما يلتصق بأركانه الأربعة ، وبما يتدلى من وسطه من مصابيح كهربية . . الجدران بالصور الثلاث الكبيرة المرسومة بالزيت ، والمعلقة عليها – صورتها وصورة والدتها على الجدار المقابل لوالدها عندما يجلس خلف مكتبه – ثم صورته هو شخصياً فوق رأسه ، على الجدار الذى خلفه . .

أحست – بل رأت – كل هذا يدور ويدور ، ومع كل خفقة من خفقات قلبها ، تزداد سرعة الدوران . .

ولكنها تماسكت ، وبذلت جهداً خارقاً ، لتقول فى همس يكاد يكون آتياً من قاع المحيط : « النيابة ؟ ! »

إن والدها لا يعلم شيئاً عما تخفيه ابنته . . خاطر واحد خطر له ، فتصوره الاحتمال الوحيد الذى يمكن أن تستدعيها النيابة بسببه لسماع أقوالها ، فسألها :

– هل صدمت شخصاً ما بسيارتك – مثلا – وأصيب إصابة بالغة ،

ولهذا يريدون استجوابك ؟

انهارت عائدة فجأة . . لمعت فى عينيها دموع خائفة . . ارتعدت شفتاها – وهى تقاوم مقاومة هائلة – لتتحكم فى حركتهما ، وقد فقدت السيطرة عليهما تماماً . . وبدأ كيانها الصغير الدقيق يهتز انفعالاً . .

ونظرت إلى والدها . . واجهت عينيه وقد أتسعت عيناها ، فى نظرة صريحة واضحة صادقة ، تزفها الدموع ، وكأنها تقول : « حان الوقت لأقول لك كل شيء » .

وأحس الأب بأن هناك شيئاً أكثر وأكبر مما تبادر إلى ذهنه ، فسألها واللهفة فى عينيه ، والاهتمام فى صوته ، والقلق يرسم خطوطه الحادة على وجهه :

– عائدة ! . . ما بك يا حبيبتى ؟ تكلمى !

انفجرت باكية . . فقام عن مقعده ، ووقف بجانب مقعدها ، وأخذ رأسها بين ذراعيه ، وهو يمسح بكفه على شعرها حانيا . . ثم انحنى على جبينها يقبله وهو يقول : .

– لا تنزعجى يا عائدة . . قولى لبابا كل شئ وأنت مطمئنة !

وأخرج من جيب الصدر منديله الأبيض الناصع ، فقدمه لها لتلتقط فيه دموعها ، ولتزيلها عن خديها . .

عاد فجلس على مقعده المقابل لمقعدها ، وهو يسألها :

– هل تفضلين أن تستمع ماما معى لحديثك فأدعوها ؟ أم نؤجل هذا لوقت آخر ؟

– بل أفضل أن تكون معنا الآن . . لقد أخفيت مأساتى عنكما معا . .

فإذا ما فرضت على الظروف إعلانها . فيجب أن يكون إعلانها إليكما معا . .

– وزكى ؟

– زكى ، أرى أن يصحبنا إلى النيابة ، ليستمع إلى القصة أمام المحقق . فإننى يجب أن أقف على سلوكه عندما يستمع إليها ، فعلى ضوء هذا السلوك قد تتحدد حياتى معه . . .

ازداد القلق وضوحاً على وجه الوالد ، وهو يسأل ابنته :

– هل الأمر خطير إلى هذا الحد يا عائدة ؟

– ادع والدتى دون أن تستلفت نظر أحد من ضيوفنا المدعوين ، لأقص عليكما القصة ، وسأترك لك الحكم على مدى خطورتها .

ثم أضافت بعد لحظة صمت قصيرة :

– أنا شخصياً مجنى علىّ ولست جانية . . والنيابة لا تعرف الحقيقة !

. . . .

ونهض الدكتور محمود ، فبارح غرفة مكتبه ، ثم عاد بعد دقائق تصبحه زوجته .

ومهد الزوج للموضوع ، حتى يهيىء زوجته لاستماع شيء قد يزعجها قليلاً . . ثم بدأت عائدة تقص القصة على والديها بكل حذافيرها . . بكل أمانة ، بلا اختصار . . بلا حذف . . بلا بتر . . بلا خجل ، فهى لم تأت بإرادتها أمراً تخجل منه .

وفى النهاية ، أكدت أنها لم تترك أى أثر يمكن أن يقود إليها . . لم تترك بصمة ، لم تترك شعرة ، لم تترك زفرة من زفراتها . . والصحف جميعها

أجمعت – فى حينها – على أن المحققين لم يعثروا على أى أثر ، وأن المتهمة لم تترك أية بصمة يمكن أن تقودهم إليها ، إلى جانب أن بصماتها غير محفوظة – بداهة – ضمن محفوظات القلم الجنائى ، بين بصمات أصحاب وصاحبات السوابق ، حتى يمكن مضاهاتها بالبصمات الملتقطة من مكان الجريمة . . إذا كان لها بصمة فى مكان الجريمة .

وأطرقت برأسها ، وهى تقول فى همس :

– هذه هى القصة كاملة . . ولقد اكتشفت – الآن فقط – أننى ارتكبت خطأ فادحا ، لأننى لم أطلعكما عليها فى ليلتها . . ولكنى لم أكن أدرى ماذا أقول ؟ ! . . ماذا أفعل ؟ ! . . كيف أتكلم ؟ ! . . كيف أتصرف ؟ ! . . كيف أفزعكما – ولا أقول أزعجكما – بحادث مروع كهذا يقع لى . . ورأيت أن أتحمله وحدى فى صمت ، وقد شجعنى على هذا ، التأكيد المتواصل فى الصحف على أن القاتلة المزعومة – التى هى أنا – لم تترك أية بصمة من بصماتها فى مكان الجريمة .

وشدت عائدة قامتها ، وشهقت شهيقا عميقاً ، فملأت بالهواء صدرها ، وهى تقول : « أقسم لك يا بابا . . »

أسرع فرفع كفه أمام وجهها بلطف ، وهو يقول :

– لا تقسمى فأنت صادقة ، والأمر واضح ، والقصة عادية ومألوفة ، ويمكن أن تقع لزوجة أو ابنة أو شقيقة المحقق الذى سيحقق معك . . إننا – مع الأسف المحزن الشديد – نعيش هذه الأيام حياة الغاب . . فنحن نقرأ فى كل يوم عن مثل هذه الحوادث . . احتيال أى رجل على أية سيدة لتركب إلى جانبه فى سيارته ، ليغتصبها ، الفرق الوحيد بين رجل

ورجل ، أن أحدهما يصل إلى غايته بهدوء ، مثل ما كاد يحدث فى حالتك ، والآخر لا يرى حرجاً من استعمال العنف والقسر والضرب ، الذى يصل أحياناً إلى استعمال السلاح . . سكين مثلاً !

وأطرق الدكتور محمود قليلاً ، ثم قال لابنته فى إحساس بالغ بالقهر مما جرى لها : – « إن هذا اللص الذى أنقذك – فى اللحظة الأخيرة – قد جنبك عار الأبد ! » .

– لقد قلت له هذا .

– هو لص باعترافه . . هذا صحيح ، ولكنى – مع ذلك – أراه أعفّ من السيد الذى أراد أن يغتصبك وأنت تحت تأثير المخدر . . أعفّ ألف مرة !

– قالها فى نفسه . . نظر إلى الجثة غارقة فى دمائها تحت قدميه ، وقال : أنا لص ، هذا صحيح . . ولكنى أشرف منه ألف مرة » !

مط الدكتور محمود شفتيه وهو يقول فى حيرة من يكاد الذهول يذهب بعقله :

– مثل هذا الرجل لا يعف عن اغتصاب امرأة ميتة . . فالمخدَّرة فى حكم الميتة !

– هذا صحيح .

– شيئان يا عائدة آخذهما عليك . .

– أنى ركبت مع رجل غريب ؟

– هذه واحدة . .

– حذّرنى اللص من تكرارها ، وقال لى بالحرف الواحد : لو اطلعك

من يدعوك إلى ركوب سيارته على بطاقته الشخصية ، وقرأت أمام خانة المهنة أنه نبي ، فلا تركبي معه ، فلسنا فى عصر الأنبياء . . والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو » أو « المرسيدس » .

– هو على حق .

– والثانية ؟

– أنك لم تخبريني بالحادث فى ليلتها ، كما قلت الآن .

– لم أجد الشجاعة .

– أستطيع أن أقدر هذا . . ولكنك لو كنت قد قلت لى ، لذهبت بك إلى النيابة فى نفس الليلة ، لتروى لمن سيستمع لأقوالك كل القصة – كما رويتها لى ولوالدتك الآن – ولا تنهى كل شيء فى ساعتين . .

ودق ركبتها بكفه ، وهو ينهض واقفاً :

– هيا بنا . . وأعتقد أن وجود الدكتور الريدى معنا سيكون ضرورة ملحة ، فأنت بحاجة لمحام كبير ليحضر التحقيق . . وسأروى له القصة باختصار ونحن فى السيارة .

وسألته زوجته : « وزكى ؟ »

– سيأتى معنا بطبيعة الحال . . هذا موقف لا يمكن أن يخفى عنه ، حتى لا يتصور أن زوجته آثمة ، وأنها لهذا تخفى إثمها عنه . . يجب أن يسمع ما سيجرى فى غرفة التحقيق كلمة بكلمة ، فإن عائدة تريد أن تضعه أمام الحقيقة كاملة ، لأنها تعتقد أن حياتها قد تتحدد معه فى ضوء سلوكه عندما يستمع إلى القصة .

وربت كتف ابنته ، وهو يقول : « – هيا بنا يا ابنتى حتى لا يتصور

الضابط الذى ينتظرنا ، أننى أحاول أن أهربك من الباب الخلفى للمسكن . مثلاً ! »

خرجوا من غرفة المكتب ، وسؤال واحد يعربد بضراوة فى رأس عائدة ، تحاول عبثاً أن تجد له إجابة مقنعة شافية : كيف وصلوا إليها بعد مرور نحو ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ التحقيق فى الجريمة ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيدها ضد مجهول ؟

على أية حال . . إنها ليست هاربة من جناية ارتكبتها . . إنها لم ترتكب جناية ما . . إنها مجرد شاهدة . . بل إنها نصف شاهدة ، فهى لم تر الجريمة وهى تُرتكب . .لقد افاقت من غيبوبة المخدّر – فى تلك الليلة السوداء – فوجدت أمامها من يقول لها إنه لص أنقذها وخلصها مما كان سيحيق بها من عار ، فشكرت له مروءته ، ثم خرجت معه دون أن تعرف عنه شيئاً ، ودون أن يعرف عنها شيئاً . .

حتى اسمه – اسم اللص – لم تعرفه . .

وحتى اسمها ، لم يعرفه اللص . .

والسؤال الصعب الذى لا تجد له إجابه مقنعة شافية ، لا يزال يدق جدار رأسها معربداً فيه بضراوة : كيف وصلوا إليها بعد نحو ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ التحقيق فى الجريمة ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيدها ضد مجهول . .

كيف وصلوا إليها ؟ ! . . كيف ؟ ؟

١٤

عندما اكتشفت الجريمة – ليلة وقوعها – تحوّلت الغرفة التى كانت مسرحاً لها ، إلى خلية نحل . . المسكن بأكمله تحول إلى خلايا نحل دائم الطنين ، لا يهدأ . .

رجال الشرطة يؤدون واجبهم . . يسألون ويستفسرون . . ولم يكن هناك من يسألونه . أو يستفسرونه غير خليفة البواب ، وحافظ عبد الرحيم صديق المجنى عليه ، الذى جاء لزيارته بعد محادثة تليفونية تمت بينهما . . وهما اللذان أبلغا عن وقوع الحادث .

رجال المباحث يطوفون بالمنطقة بحثاً واستقصاء . . يعاينون المسكن الذى ارتكبت فيه الجريمة . . يعاينون ويمسحون كل شبر فيه ، حجراته . . أبوابه ، نوافذه ومنافذه ، حديقته وبابيها ، باب الواجهة الكبير المصنوع من الحديد المطروق المزخرف الفاخر . . والباب الخلفى الصغير ، وهو الذى خرجت عائدة منه مع اللص ، ليلة الجريمة .

رجال تحقيق الشخصية . . بعضهم يمسك بالعدسات المكبّرة ، يحاول أن يستظهر بها أية بصمة تركتها القاتلة على أية قطعة من قطع أثاث الغرفة . . بعضهم يحمل آلات التصوير بالغة الحساسية ، لالتقاط أية بصمة قد تكشف العدسات المكبرة عنها بعد أن تغطى بمسحوق الألومينيوم الذى يساعد على وضوح ظهورها على ورق التصوير . .

وانتقلت خلية النحل – بعد نحو ثلاث ساعات – من مسرح الجريمة ، إلى دار النيابة العامة ، ليبدأ التحقيق . .

إن أقرب جار لمسكن المجنى عليه ، يبعد عنه بما لا يقل عن خمسمائة خطوة . . ولم يكن من المجدى سؤال أهل هذه الجيرة ، ولكن المحقق بالرغم من ذلك ، لم يشأ أن يترك شاردة تفوته فى التحقيق . .

هكذا تعلم فى كلية الحقوق . . إنه قد يصل من ثقب الإبرة إلى أوسع الآفاق

ولكنه عندما دق باب هذه « الڤيلا » – أقربها إلى مسكن المجنى عليه – فتحت له الباب طفلة فى نحو الثانية عشرة من عمرها . . واكتشف أن هذا المسكن لا يضم غير هذه الطفلة اليتيمة ، وجدّتها التى تحتضنها ، وهى سيدة فى نحو الستين . . وتقوم على خدمتها سيدة أخرى ، ربّتها ونشأتها هذه الجدة منذ طفولتها . .

ولم يكن هناك من يجوز أن يقود استجوابه لمفتاح الجريمة غير البواب ، وحافظ عبد الرحيم ، صديق المجنى عليه ، فعصرهما المحقق بأسئلته ، وحاصرهما بفنون من أساليب التحقيق وتوجيه الأسئلة . . ولكنه لم يظفر منهما – فى النهاية – بما يقنعه بأن أحداً منهما له يد فى الجريمة ، أو أنه – على الأقل – يستطيع أن يفيد التحقيق بأكثر مما أدلى به . . إنهما بريئان ، وهذه حقيقة لا شك فيها . .

ولم يكن المحقق شاباً تنقصه الخبرة والتجربة والدهاء – لحداثة تخرجه وممارسة المهنة – بل كان رجلاً حنكته التجارب ، وحقق مئات الجرائم ، وترافع أمام عشرات الهيئات القضائية أمام محاكم الجنايات ، مبتدئاً السلم من أوله حتى وصل إلى منصبه الحالى .. كان أحد وكلاء النائب العام الأوائل البارزين ، وليس أمامه أكثر من خطوة واحدة ليصبح رئيس نيابة . . .

قبل أن يختتم التحقيق فى تلك الليلة ، اتصل بالنائب العام فى بيته ، وأخبره بأنه يواجه موقفاً يرى ضرورة استشارته بشأنه ، وأنه يرجوه أن يتفضل بالحضور إلى دار النيابة . . فلم تنقض ساعة ، حتى كان المحقق مجتمعاً بالنائب العام فى مكتبه .

وبعد أن أحاطه إحاطة سريعة بالجريمة ، سأله النائب العام :

– ما المشكلة يا أستاذ فريد ؟

– سيادة النائب العام . . إن الشاهد حافظ عبد الرحيم – صديق المجنى عليه – قال فى التحقيق إن صديقه اتصل به تليفونياً ، ليخبره بأن الفتاة التى تمناها طويلا ، ورصد كل تحركاتها وتنقلاتها شهوراً ليوقع بها ، قد وقعت أخيراً ، وإنها – وهو يكلمه – راقدة فى فراشه مخدَّرة .

– وبعد ؟

– ومن بين ما قاله له ، إنه لا يعرف عنها شيئاً . . حتى اسمها لا يعرفه ، لأنه لم يكن يهتم إلا بجسمها ، ولا شيء غير جسمها . .

– وبعد ؟

– ثم قال إن كل ما عرفه عنها إنها طالبة بكلية الحقوق .

وضع النائب العام كفيه على مكتبه فجأة ، وهو يقول فى ذعر :

– طالبة بكلية الحقوق ؟ ! . . هذا فظيع . . هذا مؤسف ومحزن . . وبعد ياأستاذ فريد ؟ . . تكلم !

– إن مندوبى تحقيق الشخصية استطاعوا أن يلتقطوا بصمات الأصابع الخمس ليد الفتاة اليمنى : الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة على سطح حافة السرير . . والإبهام على جانب هذه الحافة من الداخل . . من

ناحية الوسائد ، واضح جداً أنها ارتكزت بكفها على هذه الحافة وهى تنهض من رقدتها ، بعد أن افاقت من أثر المخدر ، فانطبقت بصماتها عليها . .

– وبعد ؟ . . وبعد ؟ . . تكلم يا أستاذ فريد . . ماذا تريد أن تقول ؟

– لم نجد قرين هذه البصمات فى صحائف الحالات الجنائية .

– هذا يعنى أن صاحبة هذه البصمات . . لا سوابق لها .

– وهنا الصعوبة فى الوصول إليها . . ولهذا فإننى أرجو أن أقترح على سيادتكم الآتى . .

– تفضل يا أستاذ فريد . . تكلم !

– لن نذكر لمندوبى الصحف أننا عثرنا على أية بصمات فى مكان الجريمة .

– وما حكمة هذا ؟

– الجانية طالبة فى كلية الحقوق . . وهى بكل تأكيد ستأتى بقدميها ، بعد أن تتخرج ، لتستخرج صحيفتها الجنائية ، التى لا مفر لها من الحصول عليها ، لتقدمها للجهة التى ستعمل بها بعد التخرج . . وبطبيعة الحال ، لا مفر من مضاهاة بصمات كل من يطلب صحيفة حالته الجنائية بصحائف المطلوب القبض عليهم . . .

– معنى هذا أنك ستحفظ التحقيق لعدم التوصل إلى الفاعل ، إلى أن تتقدم الجانية بطلب استخراج صحيفتها الجنائية ؟

– سيادة النائب العام . . . نحن لا نستطيع أن نبحث بين طالبات كليتى حقوق القاهرة وعين شمس – وعددهن نحو أربعة آلاف طالبة –

فنلتقط بصماتهن جميعاً لمضاهاتها بالبصمات الخمس التى التقطناها من مكان الجريمة . . نحن نواجه كارثة خلقية يا سيادة النائب العام ، نواجه فضيحة تتعلق ببناتنا وتمسهن . . فضيحة لا أقول يحسن بنا بل يجب علينا أن نتكتمها فى أضيق الحدود ، ونحن بهذا نحاول أن نتفادى هزة عنيفة فى البلد ، يمكن أن يكون لها أسوأ النتائج . .

هز النائب العام رأسه فى أسى ، وهو يقول

– بكل أسف . . هذا كله صحيح .

– أكثر من هذا . .

– هات ما عندك . .

– إذا عرف وذاع أننا التقطنا بصمات القاتلة فى مكان الجريمة ، فإن المتهمة ستحجم قطعا عن استخراج صحيفتها الجنائية ، بعد أن تنتهى من دراستها ، ومعنى هذا أننا لن نصل إليها . .

– وتضحى بالوظيفة التى تعلمت من أجل الحصول عليها ؟

ضحك النائب المحقق وهو يقول :

– سيادة النائب العام . . إنها فى « خبطة » واحدة سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب جواهر ونفائس لا يقل ثمنها عن ألفين آخرين . . فهل تهتم مثلها بوظيفة تتقاضى عنها مرتباً شهرياً ، لا يزيد على واحد وعشرين جنيها بعد خصم الضرائب والتأمينات وغيرها وغيرها ؟

– معقول .

– هل تضحى بحريتها إذا سجنت ، أو بحياتها إذا حكم بإعدامها ، لتنال الوظيفة التى لن تنالها بحال ؟ . . إنها دارسة التدين ، وتعرف بداهة

أن البصمات التى تلتقط لمجهولى الشخصية فى مثل هذه الجرائم ، تحفظ فى إدارة خاصة ، إلى أن يضطر أصحابها لاستخراج صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بهم فيكتشف أمرهم . ويقبض عليهم فوراً .

– استمر يا أستاذ فريد . .

– إذا عرف وذاع أيضاً – عن طريق الصحف أو غير الصحف – أن المتهمة التى تبحث النيابة عنها من طالبات كلية الحقوق ، فإننا بهذا نحوِّل كل بيت ، كل أسرة بين أفرادها طالبة فى هذه الكلية ، إلى قنبلة زمنية لا مفر من انفجارها فى اللحظة الموقوتة لانفجارها ، لتدمر العلاقة بين البنت وأهلها . . سينظرون لها جميعاً على أنها بطلة الحادث الذى تناولت الصحف تغطيته بإسهاب ملحوظ ، نظراً لظروفه الشاذة ، ووسيلة المجنى عليه لاصطياد السيدات والفتيات . .

– هذا صحيح .

– كذلك . . أية فتاة من طالبات كليتى الحقوق – القاهرة وعين شمس – ستقرأ فى عينى أبويها وإخوتها وأخواتها ، وبقية أفراد أسرتها ، بل وجيرانها . . ستقرأ الاتهام فى عيونهم جميعاً ، ولو عن طريق الوهم إحساساً منها بأن الطالبة المتهمة زميلة لها . . أى أنه من الممكن أن تكون هى ، هذه الطالبة المتهمة . . ولم لا ؟ . . ومعنى هذا أننا سندمر العلاقة الأسرية الإنسانية بين أولئك الطالبات وذويهن .

اعتدل النائب العام فى جلسته ، وهو يقول لنائبه الأول :

– كل هذا جائز ومحتمل ، ومن المستحسن أن نتفاداه حقيقة . . وبعد ، فإنها حتماً ستقع يوماً ما ، وستجئ إلينا برجليها كتقديرك . .

– أتصرف إذن فى ضوء ما شرحت لسيادتكم ؟

– تصرف يا أستاذ فريد !

– بقيت نقطة أخيرة . .

– هاتها !

– أنا أميل للاعتقاد – مع شيء من التحفظ – بأن للفتاة شريكاً . . أو هى شريكة لثالث ، كان معها وقت تنفيذ الجريمة . .

– ولكن شهادة البواب تؤكد أن المجنى عليه دخل مسكنه ، يحملها على ذراعيه مغمى عليها ، وأنه – أى البواب – لم ينتقل من مكانه أمام الباب الخارجى للحديقة ، إلا عندما جاء صديق مخدومه واكتشفا الجريمة معا . . فمتى دخل هذا الثالث ؟ . . أعنى الشريك ، الذى تميل للاعتقاد بوجوده اثناء تنفيذ الجريمة ؟ . . من أين دخل المسكن ؟ . . ومتى ؟

– هذا ما يحيرنا جميعاً .

– « الفيلا » . . لها باب خلفى ؟

– لها باب خلفى .

– هل تمت معاينته ؟

– بكل تأكيد . . ولم نجد على حافته أو مقبضه أية بصمة ، ولا أشك أبداً فى أن الفتاة وشريكها – إن صح اعتقادى بأن لها شريكاً – قد خرجت ، أو خرجا معا من هذا الباب الخلفى .

– هل وجدتم بصمات أخرى غير بصماتها ؟

– لم يكن هناك أية بصمات أخرى .

– أبدا ؟

– أبدا .

– ما الذى جعلك تعتقد إذن أنها لم تكن وحدها ؟

– آثار مقاومة فى الغرفة ، والفتاة مهما كانت قوية البنية ، فهى لا يمكن بحال أن تقاوم رجلا طويلا ، عريضاً ، فى وزن وحجم المجنى عليه . . إلى أن تقتله بخنجر .

ومرت لحظة صمت ، كان النائب العام خلالها يفكر . .

لعله كان يستعرض مئات الجرائم المشابهة لهذه الجريمة ، مما مر به خلال سنوات عمله الطويلة ، ليستخلص من هذا التشابه ما يمكن له أن يطبقه عليها . . ليصل إلى ثقب الإبرة الذى قد يفتح له أوسع الآفاق . .

وما لبث أن رفع عينيه إلى وكيله المحقق الجالس أمامه ، وقال له :

– أستاذ فريد . . أنا لا أستبعد ما تقول . . فقد علمتنى المهنة ألا أفاجأ أثناء أى تحقيق ، بأى شيء . . مهما كان هذا الشيء مخالفاً لتوقعاتى ، أو لرأى كوّنته وانتهيت إليه . .

– نحن متفقان إذن ، يا سيادة النائب العام .

– تصرف فى ضوء ما تداولناه الآن ، وإذا كان تقديرك سليماً – وهو سليم فيما أرى – فاحفظ التحقيق لعدم التوصل إلى الفاعل . . وستجد رئيس وحدة فحص البصمات يدق باب مكتبك يوماً ، ليضع أمامك بصمات إحدى خريجات كلية الحقوق ، مطابقة للبصمات التى التقطها من غرفة الجريمة ، والمحفوظة لديه ضمن بصمات المطلوب القبض عليهم . ومن أقوالها تستخلص الحقيقة كاملة .

* * *

وتصرف النائب المحقق فى الجريمة ، فى ضوء ما انتهى إليه مع رئيسه بعدمناقشتهماالطويلة . . فحفظ التحقيق لعدم إمكان الوصول إلى الفاعل . ونشرت الصحف خبر هذا الحفظ . . وكان تركيز النائب – وهو يتحدث إلى الصحفيين – منصباً على أن الجانية لم تترك أى أثر يمكن أن يقود إليها بعد أن عجز مندوبو تحقيق الشخصية عن التقاط أية بصمة لها . .

كان التركيز على هذه النقطة مكثفاً ، مع تصريح من المحقق . للصحفيين بأن هذا ما يحيرهم ومادعاهم لحفظ التحقيق ، وقيد الجناية ضد مجهول . .

من هنا اطمأنت عائدة إلى أنها أبعد من أن يمكن الوصول إليها . .

وهى – بعد – ليست جانية . . ويوم ذهبت مع زملائها وزميلاتها . لتستخرج صحيفة حالتها الجنائية ، لم يخطر ببالها قط أنها استدرجت ، بكل هدوء وصبر ودهاء ، إلى المصيدة ! . . وإذا بها – وهى تحتفل بعيد ميلادها الرابع والعشرين – تفاجأ بمن يدق بابها ليستدعيها إلى دار النيابة العامة ، للتحقيق معها – وأدبا أو تأدبا – لسماع أقوالها ، بعد نحو ستة عشر شهراً من حفظ التحقيق وقيد الجناية ضد مجهول !

١٥

فتح المحضر ، وبدئ التحقيق . .

ذكرت عائدة اسمها ، وسنها ، وديانتها ، ووظيفتها ، وعنوان إقامتها ، واسم زوجها – وأشارت نحوه جالسا بالقرب منها – يقظاً مشدود الأعصاب ، متنبه الحواس . . ثم ذكرت اسم والدها ، وأشارت نحوه جالساً عن

يمينها ، واستأذنت لبقائهما معها إلى أن يتم التحقيق . . ولم يكن هناك ما يمنع ذلك ، فبقيا .

أما الدكتور الريدى ، فلم يكد يقدم نفسه للمحقق ، حاضراً التحقيق مع موكلته الأستاذة عايدة فهمى ، حتى قاطعه النائب المحقق :

– أستغفر الله يا دكتور . . لقد كنت من تلامذتك فى كلية الحقوق .

وبدئ التحقيق بسؤالها – سؤالاً مباشراً – عما إذا كانت تعرف شخصاً اسمه « عبد الحميد لطفى » . وهنا تدخل الدكتور الريدى مستأذناً فى كلمة .

– تفضل يا دكتور !

– إذا كانت النيابة تريد أن تسأل موكلتى ، الأستاذة عايدة فهمى ، عن مقتل المرحوم السيد عبد الحميد لطفى ، فإنها تستطيع أن توفر عليكم كثيراً من الأسئلة ، وأن تختصر ما قد يستغرقه التحقيق من أيام إلى ساعات . .

أجاب المحقق : « الواقع أن النيابة توجّه لها تهمة قتل المرحوم عبد الحميد لطفى . فقد عثرنا ليلة الجريمة على بصمات مجهولة على حافة السرير ، فى غرفة المجنى عليه . . وظلّت هذه البصمات محفوظة لدينا ، دون أن نعرف صاحبتها . . كان واضحاً من صغر حجمها أعنى مساحتها ، ودقتها – أنها لفتاة . . يؤيد هذا شهادة البواب ، الذى شاهد سيده يحملها ويدخل بها مسكنه ، ومحادثة تليفونية بين المجنى عليه وأحد أصدقائه . . وعندما ذهبت السيدة عائدة لتستخرج صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بها ، بعد شهور من حفظ التحقيق ، فوجئ رئيس وحدة الفحص ،

بمطابقة بصماتها للبصمات التى التُقطت من غرفة الجريمة . . فوق حافة السرير الخاص بالمجنى عليه .

فجأة ، أحس الجميع بحركة المقعد الذى يجلس عليه زكى – زوج عائدة – وهو يقول ، فى صوت من فوجئ بلطمة غادرة :

– ما هذا الذى أسمعه ! ! . . زوجتى متَّهَمة بقتل وسرقة مال رجل كانت فى فراشه ؟ !

التفت الدكتور الويدى نحوه ، وهو يقول فى هدوء :

– أستاذ زكى . . أرجو منك أن تستمع ، وأن تملك أعصابك ، حتى لا تتسرع فتظلم زوجتك !

ثم اتجه للمحقق بالحديث :

– سيادة النائب . . . الأستاذة عائدة تستطيع أن توفّر على النيابة الكثير ، كما قلت لسيادتك ، إذا استمعتم إلى القصة كاملة .

– والنيابة ترحّب يا دكتور ريدى ، فليس لنا من هدف إلا الوصول للحقيقة ، والقبض على من ارتكب الجريمة . . تفضلى يا أستاذة عائدة !

ثم التفت إلى كاتب التحقيق ، وقال له : « اكتب يا سيد مسعود ! »

وروت عائدة القصة كاملة ، فى نحو نصف ساعة . . روتها من لحظة وقوفها فى شارع الجامعة بالجيزة ، تنتظر سيارة تعود بها إلى بيت أسرتها بعد أن استعارت كراسة المحاضرات من صديقتها وزميلتها « ناهد مؤافى » . . . إلى أن خرجت مع اللص من باب المطهى المخصَّص للخدمة ، ومنه إلى الجزء الخلفى من الحديقة ، ومن بابها الصغير إلى الطريق . .

وأنهت عائدة قصتها بقولها : « سيادة النائب . . أنا ضحية ، أنا مجنى

علىّ ولست جانية ، وإن كنت قد أخفيت القصة عن أهلى ، فلم يكن هذا الإخفاء إلاّ عن حرج ، وخجل ، بل وإحساس بالخزى عميق . . فلا شك أن عبد الحميد لطفى – وقد جرّدنى من ثوبى وأنا تحت تأثير المخدر – قد بدأ عبثه بجسمى . وإن لم يصل إلى غايته المخزية ، لأن اللص تصدّى له فى اللحظة الأخيرة ، فمنعه فصان عرضى ، وأنقذنى من عار الأبد . . سألها المحقق : « هل قتله اللص ؟ »

– لم أر شيئاً ، لأنى كنت تحت تأثير المخدّر .

– ألم تنتبهى لمعركة تدور فى نفس الغرفة ؟

– كنت مخدّرة ، فكيف أتنبه ؟

– ماذا قال لك اللص ، بعد أن أفقت من المخدر ؟

– قال : أنا لص ، ولكنى أشرف منه ألف مرة !

– هل رأيته يسرق شيئاً ؟

– منديل يد للمجنى عليه ، أظنه الذى كان مبللا بالمخدر . . كان ملقى قريباً من السرير

– هل كل ما سرقه اللص منديل يد ؟

– يبدو لى أنه كان قد فرغ من مهمته ، قبل أن أفيق من أثر المخدّر .

– ألم يقل لك شيئاً آخر ؟

– قال وهو يتعجلنى ارتداء ثوبى : « ادخلى فى ثوبك بسرعة ، إذ يجب أن نخرج من هنا فى دقيقة ، لأن صديقا من أصدقائه سيحضر ليراك وليسلم عليك ، كما سمعته يقول » . . وفهمت أن الحديث كان عن طريق التليفون .

واجه المحقق عائدة ، وسألها : «أستاذة عائدة . . لو أنك تحققين هذه الجناية ، وأنا الآن أخاطب معيدة بكلية الحقوق . .

– تفضل !

– هل تصدقين المتهم ، إذا قص عليك القصة التى قصصتها علىّ الآن ؟

واجهته عائدة بشجاعة ، وغرست نظراتها فى عينيه ، وهى تقول فى صوت هادئ رزين ، فيه من الاعتداد بقدر ما فيه من أدب ، ومن إحساس صاحبته بأنها لم تعتد قط أن يشك إنسان فى صدق ما تقول .

– سيادة النائب . . أنا صادقة ، وقد قلت الحقيقة . . وخطئى الوحيد الكبير – بعد قبولى الركوب مع غريب لا أعرفه – أننى لم أخبر والدى ليلتها بما وقع لى ليصحبنى إلى هنا للإبلاغ عن الحادث فوراً . . ولو فعلت ، لانتهى كل شىء فى ساعتين . .

وهنا استأذن الدكتور الريدى ، فى إبداء ملاحظة ، وقال :

– سيادة النائب . . بعد أن أفاضت الصحف فى تغطية هذا الحادث ، حين وقوعه . طلبْت ممن تابع أنباء الجريمة من تلاميذتى وشاقه التحقيق – إذا كان قد تابعه يوماً بيوم – أن يكتب تحليلاً . مستنتجاً دوافعها ، وظروفها ، والتكييف القانونى لها ، وكيف يتصرف فيها إذا كان فى مقعد النائب المحقق ، وبم يحكم على القاتلة ، إذا كان مكانه خلف منصة القضاء . . أو تدرى يا سيادةِ النائب ماذا كتبت الأستاذة عايدة – فى هذا الموضوع . . وقد كانت ضمن تلامذتى ؟

– ماذا كتبت يا دكتور ؟

– كتبت القصة التى قصتها فى التحقيق الآن . . قالت إنها تقطع بوجود « ثالث » وقت ارتكاب الجريمة ، وإن هذا الثالث هو الذى ارتكبها . وأعترف أننى أعجبت إعجاباً شديداً بمذكرتها ، وبوصولها إلى حصر التهمة فى شخص آخـر ، غير الفتاة التى دخل المجنى عليه مسكنه حاملاً إياها على ذراعيه مخدّرة . . ولم أكن أدرى أنها كتبت التجربة التى عاشتها ، والتى تتضمن الحقيقة ، عندما قلت عنها – أقصد عن عائدة – إنها كما لو كانت فى الغرفة التى ارتكبت فيها الجريمة وقت ارتكابها . . وإنى لعلى استعداد لأن استأذنكم الآن لنصف ساعة ، أتوجه خلالها إلى مكتبى ، وأعود بالمذكرة مكتوبة بخط الأستاذة عائدة ومؤرخة بتاريخ معاصر لوقوع الجريمة . .

ونظر الدكتور الريدى إلى عائدة ، وهو يقول : « إنما أرمى بهذا لأن أؤكد أن موكلتى صادقة فى كل ما روت . . جملة وتفصيلاً » .

وقال له المحقق : « لا مانع عندى من أن أطلع على هذه المذكرة يا دكتور » .

قام الدكتور الريدى عن مقعده مستأذناً من الحاضرين ، واتجه نحو باب الغرفة ، وهو يقول : « لن تطول غيبتى أكثر من نصف ساعة ، فإن مكتبى فى شارع قصر النيل » .

وقبل أن يخرج الدكتور الريدى من الغرفة ، قام زكى – زوج عائدة – عن مقعده ، وهو يخاطب أستاذه السابق : « دكتور ريدى . . خذنى معك من فضلك ! »

والتفت إلى المحقق ، وإلى زوجته وإلى أبيها ، وهو يقول فى صوت

خيل لعائدة أنه ليس صوت زوجها : « عن إذنكم ! »

واندفع خارجاً — مع الدكتور — كالقذيفة الطائشة .

. . . .

عائدة توقعت أن الدكتور الريدى سيعود وحده . . وهمست لوالدها بهذا . . وحدث ما توقعته ، فقد عاد الدكتور الريدى بعد خمس وعشرين دقيقة ، ولم يكن زكى بصحبته . .

من ملامح الدكتور الريدى أدركت عائدة كل ما حدث . . كذلك والدها ، أدرك ما أدركته ابنته . .

كذلك أدرك الدكتور الريدى ، أن عائدة ووالدها قد أدركا كل شيء . . بلا كلمة واحدة ، ودون أن يفتح فمه بحرف واحد . .

إن زكى لا يستطيع أن يعاشر امرأته ، بعد كل ما سمعه من هول . . كان هذا موجز النبأ الذى قرأته عائدة كما قرأه والدها ، على وجه الدكتور الريدى . أما التفصيلات ، فلم يكن الوقت مناسباً ليقصها الدكتور الريدى على تلميذته الغالية ووالدها .

سأله المحقق — بمجرد دخوله غرفة التحقيق — إن كان قد أحضر المذكرة ، التى كتبتها عائدة عن الجريمة ، فقدمها له الدكتور الريدى ، وهو يقول :

— ها هى ذى يا سيادة النائب ، بخط عائدة ، وبتوقيعها ، ومؤرخة بتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر من العام قبل الماضى . . والجريمة وقعت فى الثالث عشر من الشهر ذاته . . وعندما تقرأها سيادتك ، أعتقد أنك ستتفق معى فى الرأى . . فتاة وجدت نفسها فى مأزق قد يشير إليها —

اتهاماً – بجريمتين خطيرتين ، القتل والسرقة ، وهى بريئة منهما . . وعندما أتيحت لها الفرصة لتحليل هذه الجريمة ، كدارسة من دارسى القانون أو دارساته ، وجدت قلمها يجرى بالدفاع عن نفسها ، دون أن تدرى ، مدفوعة من عقلها الباطن بغريزة حب البقاء ، مسجلة أحداث الجريمة دقيقة بدقيقة ، وبصدق لا يمكن أن يشوبه أى شك . . تفضل سيادتك بقراءة المذكرة ، فقد تضىء لك الطريق إلى الحقيقة أكثر !

قرأ المحقق المذكرة فى دقائق ، وضمها للتحقيق ، مسجلا هذا فى المحضر ، ثم وجه لعائدة سؤالا محدداً :

– أستاذة عائدة . . إذا رأيت هذا اللص ، بين أربعة أو خمسة أشخاص ، فهل تستطيعين التعرف عليه وإخراجه من بينهم ؟

أجابت بسرعة ، دون تفكير : « طبعاً » .

– وإذا رأيت صورته ، بين مجموعة من الصور لآخرين ، فهل تستطيعين أن تشيرى إليه قائلة : هذا هو ؟

بالسرعة ذاتها أجابت ، وبدون تفكير : « طبعاً أستطيع ! »

ضغط المحقق زر الجرس إلى جانبه ، فدخل الحارس المنوب ، وأدّى التحية العسكرية ، فأمره بأن يطلب من المقدم فاروق الحسينى مجموعة صور اللصوص الخطرين المحفوظة لديه . .

أدى الحارس التحية ، وبارح الغرفة ، لينفذ الأمر الصادر إليه . . ولم تمض دقائق حتى دقّ المقدم فاروق الحسينى باب الغرفة ، ودخل فقدم للمحقق مجموعة من الصور الشمسية ، وهو يقول :

– هذه مجموعة صور اللصوص الخطرين التى لدينا يا سيادة النائب . .

خمس عشرة صورة .

تناولها النائب منه ، وهو يقول : « شكراً سيادة المقدم » .

وأملى على كاتب التحقيق أنه عرض على المتهمة صور اللصوص الخطرين ، المحفوظة لدى المباحث العامة ، فأجابت . .

وقدم الصور إلى عائدة ، وهو يقول :

– دققى النظر جيدًا فى هذه الصور يا أستاذة عائدة ، وافرزى لنا من بينها صورة هذا اللص . .إن وجدتها .

تناولت عائدة مجموعة الصور بيد مرتعشة ، وراحت تستعرضها واحدة بعد واحدة ، إلى أن ردتها للمحقق ، وهى تقول :

– ليست بينها .

– متأكدة ؟

– متاكدة .

– هل تعيدين النظر مرة ثانية ؟

– إذا أردت سيادتك .

– أرجوك . . تفضلى ! . . أعيدى النظر مرة ثانية وأخيرة !

استعرضت عائدة الصور مرة ثانية – وأخيرة – ثم – ردتها إلى المحقق ، وهى تكرر ذات العبارة : « ليست بينها ! »

وأملى المحقق على كاتب التحقيق نتيجة هذا العرض ، وإنها كانت سلباً ، ثم التفت إلى عائدة وسألها :

– قلت إنك تستطيعين التعرف على هذا اللص ، إذا وقف أمامك بين أربعة أو خمسة أشخاص . .

– نعم قلت هذا .

– لن يتيَسر لنا الليلة أن نجمع لك الخطرين المشهورين ، لعرضهم عليك عرضاً قانونيًّا . . ولهذا قررنا أن تتم عملية العرض هذه ، فى الساعة الواحدة بعد ظهر غد .

ثم التفت إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– أستاذنا الدكتور الريدى . . النيابة مضطرة – مع الأسف الشديد – لإلقاء القبض على الأستاذة عائدة فهمى ، لحين استيفاء التحقيق .

. . . .

– قبض ؟ !

الكلمة خرجت – فى لحظة واحدة – من بين شفاه الدكتور الريدى وعائدة ووالدها الدكتور محمود فهمى . .

– لا يمكن .

– مستحيل .

وتمالكت عائدة أعصابها ، وهى تحس إعصاراً يعصف بروحها ونفسها وبكل كيانها ، وقالت فى صوت حاولت جهدها – وبقدر ما تستطيع – أن يبدو ثابت النبرات :

– سيادة النائب ، أنا بريئة . . أنا كما قلت لسيادتك من قبل ، مجنى علىّ ولست جانية . . ثق أننى لم أكن أتردد لحظة واحدة فى قتل عبد الحميد لطفى ، إذا كنت أفقت واكتشفت أنه اعتدى علىّ ، ولم أكن لأتردد لحظة فى الحضور لك فى نفس الليلة ، لأبلغك بأننى قتلت رجلا

فعـل بى ما كان يريد أن يفعله بى هذا الرجل لولا أن أنقذنى منه هذا اللص المجهول ، فى اللحظة الأخيرة المناسبة . . ففيمَ القبض على ؟ !

وقبل أن يجيبها المحقق ، استأذنه الدكتور الريدى فى كلمة :

– سيادة النائب . . الأستاذة عايدة فهمى شخصية معروفة ، فهى معيدة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ولها تلامذتها وتلميذاتها ، وهى بريئة قطعاً ، ووالدها الدكتور – صيدلى – محمود فهمى شخصية معروفة كذلك . . ولست أريد أن أتحدث عما يحدثه القبض عليها فى الرأى العام وفى المحيط الجامعى – بتهمتى القتل والسرقة ، فى جريمة خلقية ، من آثار بالغة السوء . . فهذه نتائج لا أشك فى أنها لا تخفى على فطنتكم . . ومع ذلك ، فوالدها وأنا نوقع الآن تعهداً قانونياً فى محضر التحقيق ، بإحضارها فى الموعد الذى حددته سيادتك لإجراء عملية العرض القانونية . .

وابتلع الدكتور الريدى غصته ، وهو يتحدث عن تلميذته الغالية ، ليضيف !

– وبعد ، فالأستاذة عائدة يا سيادة النائب ، لا تخرج أولاً وأخيراً عن كونها أحد أفراد أسرتنا القضائية ، ولو اقتضى الإفراج عنها سداد كفالة مالية – إذا رأيتم أن الضمان الشخصى لا يكفى – فنحن نسدد الكفالة فوراً .

أجابه النائب مقتنعاً : « لا بأس يا دكتور » .

وأملى كاتب التحقيق العبارة التقليدية ، التى يختتم بها أى تحقيق ، مع قرار الإفراج عن المتهمة الأستاذة عايدة فهمى ، بضمانة والدها الدكتور محمود فهمى ، على أن تحضر فى تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم

التالى . لإجراء عملية العرض القانونى على المتهمة . .

. . . .

وعلى باب غرفة التحقيق – وعائدة ووالدها ومحاميها فى طريقهم إلى الخروج – كان حشد من الصحفيين فى انتظارها . .

لمعت أضواء آلات التصوير الخاطفة فى تتابع سريع . . وحاول والد عائدة أن يمنعهم ، كما حاول الدكتور الريدى أن يردهم . . ولكن عائدة أشارت لوالدها ولأستاذها فى أدب عال ، وهى تقول فى صوت هادئ يشع كبرياء واعتدادا بالنفس :

– دعهم يا أبى . . دعهم يا دكتور ، فلست جانية ، ولا أهاب شيئاً ، ولم يعد لدى ما أخفيه !

وانهالت عليها أضواء آلات التصوير ، فبدت كمن تستحم فى الضوء . . كما انهالت الأسئلة ، وهى تجيب فى هدوء ، وفى ثبات ، وفى كبرياء ، وفى ثقة بالنفس بلا حدود . . حتى إذا سألتهم إن كانوا قد فرغوا من مهمتهم ، لتستطيع الانصراف مع والدها وأستاذها ، سألها صحفى ، إذا كان لها كلمة تريد أن تقولها أو توجهها للرأى العام ، فأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها لتقول :

– إذا كان لدى ما أقوله ، فهى كلمة قصيرة . . والكلمة ليست لى . . ولكنها للص ، ارتكب جريمة قتل دفاعاً عن عرض فتاة لا يعرفها . .

« واللص كان يستطيع أن ينجو بنفسه بكل سهولة ، فيتسلل فى هدوء خارجاً من خلف الستار التى كان يقف وراءها ، دون أن يشعر به السيد المتعلم الثرى صاحب المسكن ، لأنه سيكون – فى تلك الأثناء – مشغولاً

بالفتك بهذه الفتاة عن كل ما حوله . . واللص كان يستطيع – بعد أن ارتكب جريمة القتل – أن يستغل ضعف الفتاة ، وفظاعة موقفها بالغ الحرج والدقة والحساسية والسوء ، كفار فى مصيده . . ولكنه عفّ عن هذا المنكر ، وترفّع عن أن يسفح دم عذراء لاتملك حيال بطشه أية مقاومة ! . .

« واللص لم يتخلّ عن الفتاة ، ولم يتركها وحدها لليل وظلمته ، ووحشته ، ولكنه خرج من مسكن السيد ممسكاً بيدها ، ولم يتركها إلا بعد أن اطمأن إلى أنها استطاعت أن تستوقف إحدى السيارات ، لتصل إلى منزلها بسلام . .

« اللص قال لى ، وهذا الكلام أنوب عنه فى توجيهه لكل فتاة أو سيدة :

« – لا تركبى مع أحد بعد اليوم ، ولو قرأت فى بطاقته الشخصية أمام خانة المهنة – أنه نبى ، فلسنا فى عصر الأنبياء . . والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو » أو « المرسيدس » . . كلهم ذئاب ، ولا أهين الكلاب فأشبهها بهؤلاء الناعمين ، الذين يفتحون أبواب سياراتهم الفاخرة لكل جميلة ، واى جميلة ، مرتدين قميص المروءة ، عارضين حملها إلى حيث تريد ، بينما هم يبيّتون لها ما كان سيحل بى فى تلك الليلة . . لا أُشبه هؤلاء بالكلاب ، فالكلاب أنظف وأشرف وأعفّ منهم ألف مرة ، فلا تركبى مع أحدهم مهما كانت الحاجة ملحة للانتقال من مكان إلى مكان . . لا تركبى ! . . لا تركبى ! . . لا تركبى ! ! » .

وتابطت عائدة ذراع والدها من جهة ، وذراع استاذها من الجهة الثانية ، وساروا ثلاثتهم فى الممر الطويل ، وعدسات التصوير تلاحقهم بأضوائها السريعة ، إلى أن انعطفوا نحو سلم المبنى . . ومنه إلى الطريق حيث

كانت سيارة الدكتور الريدى فى أنتظارهم ، فعادت بهم إلى بيت أسرة عائدة

كان الحفل قد انتهى ، وانصرف المدعوون ، ما عدا قرينة الدكتور الريدى ، التى بقيت مع فوقية هانم – والدة عائدة – إلى أن يعود زوجها ، الذى أوصاها بهذا قبل أن ينسحب من الحفل مع عائدة ووالدها والمقدم فاروق الحسينى .

* * *

عائدة لم تنم فى هذه الليلة . . لم تنم حقيقة ، إذ لم يغمض لها جفن حتى بارحت غرفة نومها – فى نحو التاسعة صباحاً – فقد كانت أسيرة فكرة واحدة . .

إن صور اللصوص ، التى عرضها المحقق عليها ليلة أمس ، طالباً منها أن تتعرّف من بينها على صورة اللص القاتل . . هذه المجموعة ، لم تكن تضم صورة هذا اللص ، ولهذا ردتها للمحقق وهى تخبره بأن الصورة التى يبحث عن صاحبها ليست بينها . . ردتها له مرتين . .

وهى على موعد – فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم – لإجراء عملية عرض حية أمامها . . سيؤتى بعدد من اللصوص المعروفين الخطرين ، ليقفوا أمامها . . لتتعرف على اللص القاتل . . لتخرجه من بينهم إذا كان بينهم . .

فماذا إذا كان بينهم حقيقة ؟ . . ماذا إذا كان واحداً منهم ؟ . . ماذا لو فوجئت به واقفاً بينهم ؟

هل تشير عليه بأصبعها ، لتقول : هذا هو اللص القاتل ؟

أيمكن هذا ؟ . . أتطاوعها نفسها لترفع يدها ، فتشير إلى رجل أنقذ عرضها ، وحفظه لها من هوان يظل عالقاً بها إلى الأبد ؟ . . أهكذا يكون جزاء من ارتكب جريمة قتل بسببها ، ومن أجلها ، ليصنع جميلاً لا يمكن أن تنساه أبداً ؟ . . هل تقابل جميلة بمثل هذا الجحود ؟

هى تعرف أن مشكلة اتهامها بالقتل والسرقة قد انتهت تقريباً ، فهى تستطيع أن تدرك أن النائب المحقق قد اقتنع بصدق قصتها ، وبالتالى ببراءتها من التهمتين ، وأن الاهتمام كله – الآن – مكثف ومركز على البحث عن القاتل الحقيقى وللوصول إليه ، وإلا ما أصدر قراره بالإفراج عنها بلا كفالة ، مكتفياً بالضمان الشخصى . . وفى هذا ما يكفى للدلالة على اقتناعه ببراءتها !

كانت لها أمنية واحدة ، وهى تعانى أرقاً مريراً طوال هذه الليلة العصيبة . . ألا يكون اللص الذى أنقذها ، بين الذين سيقفون أمامها لتتعرف عليه ، ولتخرجه من بينهم . .

وظلت هكذا فى صراعها المرير ، مفتحة العينين ، إلى أن غلب نورُ الفجر – متلصصاً من خصاص نوافذ غرفها – نورَ المصباح الكهربى الصغير القريب من فراشها ، فقامت وهى تزفر زهقها ومللها وقلقها وتوترها ، لتجلس فى شرفتها تستقبل نسمات الصباح الأولى ، لعلها تغسل هموم نفسها . .

ثم عادت إلى غرفتها ، عندما بدأت عيناها تواجهان قرص الشمس فى إبهاره غير المحتمل ، فرقدت فى فراشها الخالى . .

غريبة ! ! . . غريبة جداً ! ! . .

فى هذه اللحظة فقط ، بعد أن انجلى الليل وظهرت تباشير الصباح ،

تذكَّرت أو اكتشفت أن زوجها لم يعد . . وأنها أمضت الليلة وحدها ، لأول مرة منذ زواجها . .

إن زوجها لم يعد . . لم يعد منذ بارح غرفة التحقيق مع أستاذها ومحاميها الدكتور الريدى . .

وابتسمت فى مرارة . . فى مرارة ، ولكن فى قوة ، وفى كبرياء . .

* * *

وبارحت غرفتها فى نحو التاسعة ، فقبّلت والدها ووالدتها ، وانضمت إليهما حول مائدة الفطور . . وصبت اللبن الساخن فى قدحها ، وحاولت أن تبدو كما تعوداها دائماً . .

قال لها والدها :

– اتفقت مع الدكتور الريدى يا عائدة ، على أن تمر بمكتبه فى منتصف الواحدة ، لنصحبه إلى دار النيابة . . لنكون هناك قبل الموعد المحدد بدقائق .

أجابته فى هدوء :

– حسن جدًّا يا أبى . . حضرتك ستكون تحت ، فى الصيدلية ، طبعا ؟

– طبعاً .

وابتسم وهو يضيف ، محاولاً أن يسرِّى عنها :

– سأكون فى شرف استقبالك ، ما بين الثانية عشرة والربع والثانية عشرة والنصف ، لنركب فوراً ، ونذهب للدكتور الريدى ، الذى سيكون فى انتظارنا أمام باب العمارة ، حتى لا نضيع وقتاً . .

وقام الأب عن مقعده – أمام مائدة الفطور – وهو يستأذن زوجه وابنته للانصراف إلى عمله ، إلى صيدليته أسفل البيت .

وحمل أحد الخدم إلى عائدة صحف الصباح ، تحمل عناوينها الضخمة :

مباحث القاهرة تصل إلى قاتلة الثرى عبد الحميد لطفى ، بعد ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ القضية .

بطلة جريمة مدينة المهندسين من أسرة كبيرة ، ومعيدة بكلية الحقوق ، وعلى قدر كبير من الثقافة والجمال .

المجنى عليه كان يخدّر من تركب معه ، ثم يحملها إلى بيته ، ليعتدى عليها وهى فاقدة الوعى .

المتَّهَمَة تنكر تهمتى القتل والسرقة ، وتنسبهما إلى لص مجهول ، كان فى مسرح الجريمة .

الإفراج عن المتَّهَمَة بضمان والدها .

الدكتور نور الدين الريدى محامى المتهمة ، كان أستاذها – طالبة – فى كلية الحقوق .

عملية عرض قانونية تتم اليوم ، حيث تستعرض المتهمة أخطر عتاة الجريمة المعروفين ، لتتعرف من بينهم على اللص الذى تنسب له ارتكاب الجريمة.

وعشرات الصور تبدو فيها عائدة ، وحدها ، أو بين والدها ومحاميها . . ثم تحقيقات صحفية تشغل مساحات كبيرة من صحف الصباح اليومية الثلاث ، خلعت بعضها على الحادث وصف « جريمة الموسم » .

* * *

مع مئات الألوف الذين يقرأون ، كان اللص يقرأ ، فهو يستطيع أن يقرأ . .

– نهار أسود . . الحق يا توحة !

وأسرعت زوجته إليه ، فقال : « أنت فاكرة عملية مدينة المهندسين ؟ »

– مالها ؟

– وصلوا إلى البنيَّة المسكينة ، واتهموها بالقتل والسرقة .

– يا مصيبتى ! . . ولكنها مظلومة يا عبد الغفار .

– المهم الآن . . يجب أن أختفى بسرعة ، لأنى أتوقع حضورهم فى أية لحظة ، للقبض علىّ ، لأقف أمامها مع غيرى فى عملية العرض التى ستجرى اليوم . .

– وهى ستعرفك من نظرة . .

– مصيبة ! !

– أسرع يا عبد الغفار . . بسرعة « يا خويا » . . ربنا يسلم لك طريقك .

– عندك فلوس ؟

– عندى يا عبد الغفار . . معى كفاية .

– خذى هذا المبلغ أيضاً . . من يدرى ، فقد أضطر للغياب عنك أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ، إلى أن تنام الحكاية قليلا . . أراك بخير يا توحة .

– مع السلامة يا عبد الغفار .

– تعالى يا رشا !

وحمل طفلته الوحيدة ، وضمها إلى قلبه ، ثم قبلها وأعادها إلى

أمها ، وانطلق إلى باب المسكن . . وما إن فتحه ليخرج ، حتى فوجئ بأحد ضباط الشرطة ، ويده على الباب يكاد يدقه . . وكان بصحبته شرطيان ، أحدهما برتبة مساعد ، والثانى برتبة عريف

– إلى أين يا عبد الغفار ؟

فاجأه الضابط بسؤاله ، فأسرع عبد الغفار يقول :

– أشترى طعام اليوم ياحضرة الضابط . . تفضل ياحضرة الضابط !

ثم ابتسم للشرطى الذى يحمل رتبة مساعد :

– تفضل يا عم سلامة !

ثم للشرطى الآخر : « تفضل ياعم هارون ! »

ولكن الضابط ابتسم ابتسامة يعرفها عبد الغفار ، وهو يقول :

– لاتضيع الوقت يا عبد الغفار . . دع لامرأتك شراء طعام اليوم ، وتعال معنا !

تجاهل اللص معرفته بالغاية من زيارتهم المفاجئة ، وهو يقول للضابط :

– ماذا جرى ياحضرة الضابط ؟ أنا تُبت من زمن . . هل حدث منى شيء ؟

– لا شيء يا عبد الغفار . . عملية عرض بسيطة ، ولا داعى لكثرة الكلام .

– حاضر .

قالها اللص فى يأس وتسليم ، بعد أن أسلم لله أمره . . لقد حدث ما توقعه عندما قرأ نبأ عملية العرض ، من أن رجال الأمن لابد أن يكونوا فى طريقهم إليه ، ليكون ضمن الذين ستستعرضهم عائدة فى عرض

قانونى . . ولكنه لم يكن يتوقع مجيئهم بهذه السرعة ، قبل أن يلوذ بمخبأ خاص به ، لا يعرفه أحد سواه . . حتى زوجته لا تعرفه !

* * *

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم ذاته ، كانت عائدة بصحبة والدها ومحاميها – أستاذها الدكتور الريدى – يستأذنون للدخول على وكيل النائب العام المحقق .

رحب الرجل بهم ، وهو يقول : « سنبدأ عملية العرض فوراً ، فقد استدعينا معظم الخطرين الذين يحتمل أن يكون القاتل أحدهم ، وليس بينهم واحد ممن عرضت صورهم على الأستاذة عائدة بالأمس . . تفضل يادكتور ريدى . . تفضلى يا أستاذة عائدة . . تفضل يادكتور محمود ! »

وأشار إلى المقاعد القريبة من مكتبه ، وهو يدعوهم للجلوس ، فجلسوا .

أعاد فتح التحقيق ، وأملى الكاتب « الديباجة » المعروفة ، ثم أصدر أمره للشرطى الواقف بقرب الباب بأن ينهى للمقدم فاروق الحسينى أن الأستاذة عائدة فهمى قد حضرت لإجراء عملية العرض ، التى تقرر بالأمس إجراؤها بحضورها .

ولم تمض دقائق حتى دخل المقدم فاروق الحسينى ، يتبعه أحد عشر « نجماً » من نجوم الجريمة فى مدينة القاهرة ، يتبعهم أربعة مسلحون من رجال الشرطة الأشداء .

– فى الصف أنت وهو بسرعة ، قدام سيادة النائب . . تحرك !

قالها المقدم فاروق الحسيني للصوص ، الذين سيشكلون العرض أمام عائدة . . وفى ثوان كان الأحد عشر لصاً فى صف واحد منتظم .

استعرضهم النائب المحقق بنظرة لم تستغرق ثوانى ، ثم وجه حديثه إلى عائدة :

– أستاذة عائدة . . انظرى جيداً إلى هؤلاء الأشخاص . . هل ترين بينهم اللص الذى فتحت عينيك من الإغماء على وجهه ، ليلة الجريمة ؟

النائب لم يكن بحاجة لهذا السؤال ، لأن عينى عائدة قد التقطتا وجه اللص بين زملائه ، وهو يخطو من عتبة باب الغرفة إلى داخلها . . كما أحست بأن عينيه قد التقطتا وجهها ، فى لمحة تتساوى سرعة بسرعة الضوء . .

وعاد المحقق يقول لها فى هدوء :

– على مهلك يا أستاذة عائدة . . أنعمى النظر جيداً ، دون أن تظلمى نفسك أوتظلمى أحداً !

وراحت عائدة تستعرض وجوه الواقفين أمامها ، إلى أن التقت عيناها بعينيه . . وفى لمحة خاطفة ، عادت بخيالها إلى لحظة معينة من تلك الليلة المروعة . . ليلة الجريمة . . – لحظة أن كان اللص يتعجلها الهرب – من ذلك المسكن الملعون – وهو يقول لها :

– لا داعى للفزع . . لقد أرسلتنى العناية لأخلصك من هذا الحيوان ، فى اللحظة المناسبة قبل أن . .

– ومن يدرى . . ألا يجوز أن تقفى إلى جانبى يوما ما ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أو لك أن نتكهن به الساعة . .

وبذلك تردين لى ما تعتقدين أنه جميل قدمته لك . . كل شىء جائز يابنتى ، ولا تستبعدى شيئاً !

– مع السلامة . . والله يتولاك ويسترك !

هذا الرجل اللص – أو اللص الرجل بمعنى أصح – أنقذ عرضها من أن ينتهك ، وكان انتهاكه محتماً ، ذات ليلة حالكة السواد . . وبهذا جنّبها أن تعيش حياتها فى هوان ، يكللها بعار يظل عالقاً بها وباسمها وبسمعتها إلى نهاية العمر . .

فهل تخذله ؟ . . هل تتخلّى عنه ؟ . . هل تخيب رجاءه فيها ، وأمله فى أن تقف إلى جانبه ، كما وقف إلى جانبها فى أسوأ وأسود لحظات حياتها ؟

وبعد . .

فإن من قتله هذا اللص يستحق القتل ، بعد أن سفح أعراض عشرات السيدات والأبكار ، وكان من المقدّر لها أن تنضم – هى أيضاً – إلى قائمة من اعتدى على أعراضهن ، لولا هذا اللص الرجل ، الذى أنقذها فى اللحظة الأخيرة . . أنقذها بعد أن خاض معركة اضطر خلالها لأن يرتكب جريمة قتل ، وهو يعلم أن صديقاً لضحيته فى الطريق لزيارته ، بين لحظة وأخرى ، ليراها ، وليصافحها ، وليتعرّف عليها . . كأنها سلعة للفرجة !

وهل . . ؟

وبينا هى تدير كل هذه الأفكار فى رأسها ، سمعت النائب المحقق يسألها : « هيه يا أستاذة عائدة . . ؟ »

حولت عائدة عينيها عن صف اللصوص الواقفين أمامها ، ونظرت إلى النائب ، وهى تقول فى صوت هادئ النبرات :

– ليس بينهم يا سيادة النائب !

– متأكدة ؟

– متأكدة .

– هل تعيدين استعراضهم مرة أخرى ؟

– إذا شئت سيادتك . . ولكنى متأكدة من أنه ليس بينهم .

– حسن جداً

والتفت إلى المقدم فاروق الحسينى ، وقال له : « شكراً ياسيادة المقدم » .

وخرج الأحد عشر نجماً . .

ولم تفت عائدة لمحة خاطفة من عينى اللص ، وهو يستدير خارجاً .

وفهمت من هذه اللمحة الخاطفة الكثير . .

فقد كانت عيناه تقولان أكثر من الكثير . .

١٦

لم تمض أيام أخر ، حتى ظهر خبر صغير فى صفحات الحوادث بالصحف اليومية الثلاث . . والخبر يقول إن النيابة قد حفظت التحقيق فى جريمة مدينة المهندسين ، بعد أن ثبتت براءة الأستاذة عائدة فهمى ـ المعيدة بكلية الحقوق ، من تهمتى القتل والسرقة ، لعدم ثبوت الادلة ضدها . . كما قيدت الجناية ضد مجهول ، ، لعدم إمكان التوصل للفاعل الحقيقى .

فى اليوم ذاته ، يوم نشر الخبر ، أزّ الجرس فى مسكن أسرة عائدة . . وكانت تجلس مع والدتها وقرينة الدكتور الريدى ، التى تعلقت بالأم وبابنتها منذ أن دعيت لشهود عيد ميلاد عائدة ، فلم تتخلف يوماً عن زيارتهما ، وقضاء بعض الوقت معهما . . وكانت عائدة قد طلبت السماح لها بأسبوعين للراحة من عملها ، فقد كانت فى حال لا تسمح لها بأن تمارس حياتها العادية ، بعد التجربة المريرة التى مرت بها . .

كانت تحس إحساس من دخل بكل جسمه - عارياً - خلية نحل تضم خمسين ألف نحلة . . مائة ألف نحلة . . فانقضت عليه جميعها ، تلسعه فى كل خلية من خلايا جلده . . فى كل مسام جلده ، إلى أن تخلص من الخلية بمعجزة . . ولكنه خرج حطاماً شائهاً .

أزّ الجرس فى ردهة المسكن ، ولم يمض قليل حتى جاءها أحد الخدم ، فأسر لها بكلمة فى أذنها ، فاستأذنت والدتها وقرينة أستاذها لتستكشف الأمر . .

بالباب رأت شرطياً يسألها : « السيدة الأستاذة عايدة محمود فهمى ؟ »

أجابته فى هدوء : « انا » .

- سيادتك ؟

- سيادتى .

- شخصياً ؟

- شخصياً .

- أنا آسف ياسيدتى ، فإننى أحمل لك ورقة لم أكن أحب أن أكون حاملها .

- أفصح من فضلك ؟

– وثيقة طلاقك من الأستاذ زكي الرفاعي .

ابتسمت ابتسامة هادئة ، وهي تقول :

– لا يهمك . . فقد كنت أنتظرها ، وقد أدهشني أنها لم تصل إلا اليوم

– هل تسمحين بالتوقيع هنا بالاستلام ؟

– بكل تأكيد . . وشكراً .

وقعت باستلام وثيقة طلاقها . . وأنصرف الشرطي ، وأغلقت الباب وعادت إلى والدتها وضيفتهما ، قرينة الدكتور الريدي . .

* * *

سألتها والدتها الخبر ، فقدمت لها الوثيقة وهي تبتسم . . وما إن قرأتها الأم ، وانتهت من الإحاطة بمضمونها ، حتى مطت شفتها السفلى أسفاً واحتقاراً ، وهي تنظر لأبنتها تبادلها ابتسامتها ، ثم مدت يدها بالوثيقة فقدمتها إلى قرينة الدكتور الريدي ، وهي تقول :

– لأوفر عليك عناء قراءة هذا الخط الرديء ياسميه هانم . . لقد طلق زكي عائدة في قسم الشرطة ، وهذه وثيقة طلاقها .

أجابتها قرينة الدكتور الريدي ، دون أن تلمس الوثيقة بأصابعها :

– كما لا تصنع الفلوس إنساناً يا فوقية هانم ، كذلك لا يصنع العلم ولا الشهادات هذا الإنسان . . لقد أخبرني الدكتور ريدي بتفاصيل الحديث الذي جرى بينه وبين زكي ، ليلة أن استدعت النيابة عائدة ، ونحن نحتفل بعيد ميلادها هنا .

سألتها عائدة – كمن لا تمانع في أن تعرف . . ولكن ليس باهتمام

من تعلق أهمية كبرى على هذه المعرفة :

– ماذا قال الدكتور الريدى ياسمية هانم ؟

– تذكرين أن عمك الدكتور استأذن – أثناء التحقيق – ليحضر مذكرة ، كنت قد كتبتها بخطك عن هذه الجريمة ، أثناء الدراسة خلال السنة النهائية . .

– أذكر هذا جيداً . . وأذكر أن زكى استأذن المحقق ، وطلب من الدكتور الريدى أن يحمله معه .

– فى السيارة ، قال – قليل الأدب – لعمك الدكتور : « لم أكن أعرف أنها ممثلة بارعة إلا الليلة . . لقد اصطحبتها مع والدتها لتشاهد « فيلا » عثرت عليها لتسكنها ، دون أن أدرى أن هذه الفيللا هى بذاتها التى أرتكبت فيها الجريمة ، إلى أن صرح لى البواب بذلك . . فقلت لنفسى : لا بأس ، فإن أزمة المساكن أصعب من أن تدع لمن يريد أن يسكن حرية الاختيار . . باختصار شديد ، صحبتها – ووالدتها معنا فدخلت « الفيللا » بأعصاب من حديد ، وتجولت بداخلها وكأنها تراها وتدخلها لأول مرة . . وبطبيعة الحال ، لم تكن لتستطيع أن تقبل سكناها ، بعد أن صارحتها بأن هذه « الفيللا » هى التى أرتكبت فيها الجريمة المشهورة ، حيث قتلت صاحبها إحدى النسوة من فئة معينة . . قلت لها هذا دون أن أدرى أنها كانت تعرفها قبل أن أعرفها ، ودخلتها قبل أن أدخلها ، وأن لها بين جدرانها مغامرتها المشينة المفزعة . . فظلت تتضاحك وتتعابث ، فمرة تقول لى إنها ستكتب لشركات السينما التى تخصصت فى إنتاج أفلام « فرانكشتين » لتخرج فيلماً – بين جدرانها – عن هذه الشخصية الأسطورية .

ومرة تقول – ونحن فى غرفة الجريمة – هيا بنا من هنا ، حتى لا تفاجأ بشبح الميت متسربلاً بأكفانه ، يسألنا ماذا نفعل هنا . . كيف أستطيع أن أعيش معها بعد كل ما عرفت عنها يا دكتور ريدى ؟ . . كيف أستطيع أن أعاشرها وأن أجعلها أما لأولادى ولها مثل هذه التجربة ؟ . . ومن يدرى إن كان لها تجارب سابقة ، وكم عدد هذه التجارب ؟ ! . . ومن يدرى أيضاً ، ماذا تم فى هذه التجربة ، وإلى أية نهاية انتهت ؟ . . مع كل هذا لا تتحرك ، ولا تهتز ، ولا تتأثر ! ! ! هذا كله سلوك ممثلة ، وانفعال ممثلة ، وأعصاب ممثلة . . وأنا لم أتزوج ممثلة ، لتمثل أمامى ما قد تضطرها الظروف للقيام بتمثيله من مواقف ، لتدارى سوأة أولتخفى عاراً . . أنا يادكتور ريدى لا أستطيع أن أعيش فى الزيف والكذب ، ولقد عشت معها هذه الشهور التى انقضت على زواجنا – وحتى اليوم – فى زيف وكذب متصلين مستمرين ، ولهذا فإنى سأطلقها . . غداً سأتوجه إلى قسم شرطة قصر النيل – قريباً من البيت – لأطلقها ، وسيتولى القسم تسليمها وثيقة طلاقها ، وأكون شاكراً لو تفضلت بأن ترسل لى متعلقاتى الخاصة ، على بيت أسرتى فى البغالة » . .

« ثم سكت ساكن البغالة قليلاً ، وعاد يقول :

– ما لنا نحن وسكان « جاردن سيتى » يا دكتور ريدى ؟ . . »

وسألتها عائدة : « ولم لم يخبرنى أستاذى الدكتور ريدى بكل هذا ياسمية هانم ؟ »

– أخبر والدك به ، مع رجاء منه بألا ينقله إليك إلا بعد وصول الوثيقة ، فربما تمهل زكى وراجع الأمر فيما بينه وبين نفسه – بعد أن

يهدأ ، فيعدل عن قراره الأحمق . ولكن . .

وأمسكت سمية هانم قليلاً ، لتستأنف حديثها :

– ولكن هناك ناس ياعائدة يابنتى ، يركلون بأقدامهم ما بين أيديهم من نِعَم .

ثم ابتسمت وهى تقول :

– على أية حال . . لقد أعجبتنى عبارة واحدة ، قالها : « مالنا نحن سكان البغالة بسكان جاردن سيتى ؟ » . .

* * *

غداً ينتهى الأسبوعان اللذان أمضتهما عائدة بعيدة عن عملها ، وبانتهائهما تنتهى إجازتها العارضة . .

بعد غد تعود إلى عملها ، معيدة بكلية الحقوق ، جامعة القاهرة . .

ولكن عائدة كانت قد عقدت النية على أمر ، قررت أن تسأل والديها رأيهما فى شأنه ، وهم حول مائدة العشاء . .

فى المساء دعاها والدها مع والدتها إلى عشاء خارج البيت ، وترك لهما اختيار المكان . . ولكن عائدة اتفقت مع أمها على أن يكون هذا العشاء فى شرفة الدار ، وهى بموقعها الفريد ، مطلة على النيل ، لا لايضاهيها جمالاً وهدوءاً سطح أرقى فنادق القاهرة . . وقد كانت الغلبة لرأيهما معاً ، فجمعتهم مائدة العشاء فى الشرفة

وهم يتناولون الفاكهة ، قالت عائدة :

– أبى . . أرجو أن أستأذنك فى أن أقدم استقالتى من عملى بكلية الحقوق .

ولم يكن الاقتراح مفاجئاً لوالد عائدة . .

كذلك ، لم يكن مفاجئاً لوالدتها . .

فكلاهما يعرف ابنته شديدة الكبرياء ، عالية الأنفة ، وإن كان تواضعها – فى مقام التواضع – مضرب الأمثال . .

ابتسم الوالد وهو يقدم لها تفاحة ، أزال عنها قشرتها بسكينة ، وهو يقول « لمَ ؟ »

تناولت منه التفاحة المقشورة مع كلمة شكر ، ثم قسمتها إلى ثلاثة أقسام ، قدمت لكل من والدتها ووالدها قسماً ، ووضعت القسم الثالث فى صحفتها ، وهى تقول :

– يخيل إلى أننى سأواجه فى الكلية – بعد كل ما جرى ونشر فى الصحف – متاعب قد لا تنتهى بسلام . . أنت تعرف – أبى – أن هناك كثيرين يعانون ضيق الأفق ، فتنقصهم النظرة المنصفة ، وهم بالتالى لا يملكون سلامة التقدير ، ولا يحسنون الإدراك ، ويتناولون الأمور تناولاً فجًّا ، فيسيئون إلى الغير بتصرف غير لائق ، أو بكلمة نابية ، أو بإشارة جارحة ، أو بنظرة ساخرة ، أو بابتسامة . . مجرد ابتسامة تقول ألف كلمة نابية ، وقد تجاوز النبوّ إلى البذاءة ، فما الذى يجبرنى على هذا ؟ . . إننى أترك الكلية باختيارى ، قبل أن أضطر لتركها لأننى لم أعد أستطيع البقاء بها .

أجابتها والدتها : « أنا شخصيًّا موافقة ، وأنت – بعد – لست بحاجة للعمل » .

– ليست مسألة حاجة يا ماما . . ولكنى أحس بسعادة كبيرة وأنا

أعمل . . وعندما أحس بأننى فقدت الإحساس بهذه السعادة ، فثق بأننى لن أتأخر لحظة عن تقديم استقالتى من عملى الجديد . .

تدخل والدها فى الحديث فقال : « أنا أفهم عائدة فهما تاماً . . »

– معنى هذا أنك تقرنى . . ؟

– طبعاً أقرك ، ما دام هذا إحساسك ، ولا أملك ، ولا أستطيع – بل لا يجوز – أن أردك عن تصرف تجدين فيه راحتك .

– شكراً ياأبى .

وضحك الدكتور محمود وهو يقول :

– ما رأيك لوشرفت صيدلية « بابا » المتواضعة ، وجعلت من نفسك مديرة لها ؟

ضحكت الأم وابنتها ، وقالت الأم : « والله . . أحسن فكرة ! »

– وأنا أتكلم جاداً والله . . ادرسى العمل معى أياماً ياعائدة ، وستعى ذاكرتك أسماء الأدوية ، وأمكنتها من الأرفف ، فى مدى أسابيع . . وأنا بحاجة لمن هى فى علمك ومظهرك وشبابك ونشاطك . . وبعد ، فالصيدلية فى النهاية لك ولماما ، ويجب أن تتعلمى كيف تديرينها من الآن . . صيدلية تدار إدارة ماهرة ، تدر الألوف كل شهر . . وليس من الضرورى أن يكون مديرها صيدلياً ، من حيث الناحية القانونية ، فإن الإدارة علم منفصل بذاته . .

وضعت عائدة أطراف أصابعها على شفتى والدها ، وهى تقول :

– « أرجوك . . لا تعد لمثل هذا القول مرة أخرى ، أو . . سأبكى ! »

وابتسم الأب وهو ينظر إلى ابنته بحنان يكاد يقطر دموعاً من عينيه ،

وهو يقول : « إذن ، ما هى مشروعاتك بعد الاستقالة ؟ »

– سأشتغل بالمحاماة مع أستاذى الدكتور الريدى . . سأبدأ معه محامية تحت التمرين . . وأظل فى مكتبه . . أكبر ، وأنجح ، وأصبح محامية كبيرة مشهورة . .

– هذه أجمل فكرة !

العبارة قالها الأب والأم معاً ، وكأن شفاههما كانت على موعد .

* * *

فى اليوم التالى ، أرسلت عائدة استقالتها إلى عميد كلية الحقوق . . استقالة قصيرة ، مهذبة ، أنهتها بأنها لايمكن أن تنسى – مهما أمتد بها العمر – السنوات الأربع التى أمضتها طالبة بكليتها العزيزة ، ثم الشهور التى عملتها بها فى وظيفة « معيد » .

ولم تكد تعرض على أستاذها رغبتها فى العمل معه ، حتى قام عن مقعده ، وأمسك بيدها ، وخرج بها من غرفة مكتبه ، متجهاً إلى غرفة أخرى مجاورة ، فتحها وأضاء نورها ، وإذا بها غرفة مكتب مؤثثة بأثاث فاخر ، أنيق . .

أشار بيده إلى محتويات الغرفة ، وهو يقول لعائدة !

– المحاماة مهنتك يا عائدة ، وهنا مكانك . . هذا مكتبك الذى ستتدرجين فيه ، من المرافعة أمام المحاكم الجزئية والجنح والمخالفات ، إلى أن تصلى للمرافعة أمام محكمة النقض ومجلس الدولة . .

نظرت له متهللة ، والابتسامة تطل من عينيها مضيئة ضاحكة . .

– صحيح ؟ يعنى . . ستشرفنى بالعمل معك يا دكتور ؟

ربت كتفها بكفه فى حنان بالغ ، وهو يقول فى عتب رقيق :

– كيف تسألين هذا السؤال يا عائدة ؟ أنت ابنتى . . وأنا بحاجة لك ، أنت بالذات ، لأننى لا يمكننى أن أطمئن لغيرك كما أطمئن لك . . ومن الغد سأصحبك لتحضرى معى مرافعة حاسمة ، وفاصلة ، فى قضية تهريب كبرى . . وأنا على ثقة بأنك ستكونين خير عون لى .

– لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور . .

– تعالى نطلب الدكتور محمود وفوقية هانم ، لننهى لهما هذا النبأ السعيد . . إنك قبلت أن تشرف عملك الدكتور الريدى بالعمل معه . . كما نطلب أيضاً « سمية » لننهى لها النبأ ذاته . . ومن الغد تقدمى بطلب انضمامك عضواً بنقابة المحامين .

١٧

عائدة سعيدة بعملها الجديد . . لم تكن تدرى أن مهنة المحاماة يمكن أن تكون هكذا . . رحلة ممتعة ، أخاذة ، إلى الانطلاق ، تتجدد صورها يوما بعد يوم ، على هذا النحو المثير الذى يذكى فى النفس الطموح والأمل والتطلع إلى أرحب الآفاق . .

بدأ أستاذها يدربها على تنظيم القضايا ، وفهرسة وثائق ومستندات كل قضية بالأرقام فى ملفها الخاص بها ، كما بدأ يصطحبها معه إلى المحاكم التى يترافع أمامها فى أخطر القضايا ، فكانت – دائماً – خلفه كظله . .

حتى إذا أراد أن يعزز ما يقول بمستند رسمى ، كانت يدها ممدودة نحوه ، ليأخذ منها المستند ويقدمه لرئيس الهيئة ، وهو واثق بأنه يقدم المستند الصحيح . .

لم تخطئ مرة ، ولم تخذله مرة ، ولم تسبب له الحرج مرة . . ولم تعطه الفرصة ليندم على اعتماده عليها . فى مهنته الخطيرة ، مرة . . كانت دائماً « حاضرة » ، صاحية ، واعية ، يقظة ، مفتوحة العينين ، مرهفة الأذنين . . وقد لفتت الأنظار إليها بكل هذه اليقظة الحارة ، فلم تكن تفوتها شاردة . .

وأحبت عملها أكثر . . فقد أعطاها أستاذها أكثر من فرصة ، فأحال إليها القضايا التى يسمح لها بتمثيل المتهمين فيها أمام المحاكم الجزئية ومحاكم الجنح والمخالفات ، فلم تخسر قضية واحدة . . .

وبدأ أستاذها يكلفها بتحضير القضايا التى سيترافع فيها ، أمام محاكم الجنايات أو النقض أو مجلس الدولة . . تحضرها له مشفوعة – كل منها – بمذكرة وافية ، مدروسة ، مع إبداء رأيها القانونى ، وكانت فى أول عهدها بهذه العملية – عملية التحضير – تستشعر حرجًا بالغاً من إبداء رأيها فى أية قضية ، بعد أن تنتهى من دراستها ، ولكنه خلصها من هذا الإحساس بالحرج ، عندما قال لها :

– بالعكس يا عائدة ، فأى محام – مهما كان كبيراً – بحاجة دائمة إلى رأى أى زميل من زملائه ، ولو كان أحدث منه فى ممارسة المهنة . . إنه – على أقل تقدير – يستنير بهذا الرأى الآخر . . قد لا يأخذ به ، ولكنه قد يكون سكة تقوده إلى الطريق الصحيحة للمرافعة . . فلا تتحرجى أبدا من ابداء رأيك وتسجيله ، فمن الجائز أيضاً أن أجد ثغرة فى هذا الرأى ، فتكون

الفرصة متاحة لى لأصحح لك .. وبالتالى تكون متاحة لك لتستزيدى علماً وخبرة ..

وكان رأيه صوابا ..

الشهور تمر ..

وهى تعود كل يوم من مكتبها إلى بيتها مرتين ، ظهراً وليلاً ، تقود سيارتها الصغيرة ، سعيدة خفيفة نشطة ، لتحكى لوالدها ولوالدتها كل ما مر بها طوال اليوم بفترتيه : من قابلت ؟ .. من حدثت ؟ .. فيم ترافعت ؟ .. أغرب ما صادفها ومن الذى صادفها ...

كانت تقص كل هذا على والديها ، كتلميذة صغيرة التحقت حديثاً بالمدرسة الابتدائية ، فإذابها تسرع – بمجرد عودتها من المدرسة – لتحكى لهما ما مر بها طول يومها المدرسى ، وهى سعيدة بإشراكهما معها فى كل متاعبها ومسراتها جميعاً ..

حتى إذا كان صباح أحد الأيام ، ولم يكن لديها من القضايا ما يدعوها للذهاب إلى المحكمة .. كذلك كان أستاذها عاكفاً – فى حجرة مكتبه – على مراجعة مذكرة أعدتها له ، خاصة بإحدى القضايا الكبرى ، التى ستنظر أمام محكمة أمن الدولة .. فإنه أيضاً لم يكن لديه ما يضطره للتوجه إلى المحكمة .

وعندما فتحت عائدة إحدى صحف الصباح ، فوجئت بصورته أمامها .. صورة اللص !

لم تستطع أن تقاوم رعدة ، سرت من قلبها إلى بقية أعضاء جسمها ،

حتى أطراف أصابع قدميها . قرأت أول ما قرأت ، الكلمات القليلة المكتوبة تحت صورته : « اللص الخطر عبد الغفار سرور » .

إنها لم تكن تعرف اسمه حتى هذه اللحظة . . اسمه عبد الغفار سرور .

وراحت تقرأ العناوين الكبيرة ، المكتوبة بالخط العريض :

* أغرب جرائم السطو فى القاهرة .

* اللص الخطير « عبد الغفار سرور » يهشم ويشوّه وجوه أربعة لصوص ، عندما وضعته الأقدار فى مواجهتهم .

* اللص الخطير تسللَ إلى المسكن ، الذى قرر سرقته ، فى نفس الليلة التى قرر اللصوص الأربعة الشركاء سرقة المنزل ذاته . .

* ماذا يفعل اللصوص بعضهم ببعض ، إذا تعارضت مصالحهم ؟

* وفاة أحد اللصوص الأربعة ، بعد نقله إلى المستشفى بساعات . وتوجيه تهمة قتله إلى اللص الخطير .

قرأت عائدة التحقيق الصحفى ، الذى أفاضت فى وصفه الصحف ، ثم أمعنت النظر فى صورة عبد الغفار . . بجبينه العريض ، وحاجبيه السوداوين الغزيرين ، فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . . بملامحه حادة التقاطيع صارمتها ، كمن لم تطف البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، وحتى اللحظة التى التقطوا فيها هذه الصورة المنشورة فى الصحف .

ولم تستطع أن تمنع شفتيها من أن تنفرجا عن ابتسامة ، وهى تقول لنفسها :

– مرة ثانية ، لن أتخلى عنك . . ولن تكون وحدك !

ثم بصوت خافت ، سمعته أذناها :

– على أية حال . . إنه متهم كأى متهم . ومن الممكن جداً أن يلجأ لمكتبنا . ليتولى الدكتور الزيدى قضيته والدفاع عنه .

وأخذت الصحيفة . وقامت متجهة إلى حجرة أستاذها ، فدقت بابها مستأذنة عليه . ودخلت . .

– أهلا يا عايدة !

– أهلا بك يا دكتور !

– تعالى . . اجلسى . فقد كنت بحاجة لمن ينتزعنى من قراءة هذه المذكرة انتزاعاً ، لأرتاح قليلاً . . فإذا بك تنقذيننى من نفسى ! ابتسمت وهى تقول : « الراحة أثناء دراسة القضايا ، أمر لا بد منه ، حتى لا يشوّش الإرهاق أذهاننا !

سألها وهو يبتسم : « ما رأيك فى قدح قهوة ؟ . . فرصة نتحدث خلالها معا . . راحة ربع ساعة ، ثم أعود بعدها لاستكمال دراسة هذه المذكرة الممتعة » .

ابتسمت وهى ترد تحيته لمجهودها : « شكراً يا دكتور . . ولا بأس أبدا بقدح من قهوة البن الفاخر الذى تعده سمية هانم » .

رفع الدكتور الزيدى سماعة التليفون الداخلى ، وأوصى بقدحين من القهوة ، ثم رد السماعة إلى مكانها ، وهو يرحب بتلميذته الغالية .

سألته عائدة ، وهى تقدم له الصحيفة مفتوحة على الصفحة التى تتوسطها صورة اللص ، وهى تقول : « هل قرأت نبأ هذا الحادث يا دكتور ؟ »

ضحك الدكتور الزيدى من قلبه ، وهو يقول :

– قرأت الحادث بكل تفصيلاته ، وأضحكنى اللص عبد الغفار

بسلوكه الغريب ، وبخفة دمه . .فعندما فوجئ بأربعة من اللصوص يدخلون المسكن ، وهو بداخله يتأهب للسرقة ، عرض عليهم أن يتعاونوا معا ، وأن يقتسم معهم ما سيسرقون ، قسمة الحق . . لكل منهم الخمس تطبيقاً لمبدأ الاشتراكية . . بمفهومه الخطأ طبعاً ! »

ضحكت عائدة ، وهى تقول :

– إنه فهم الاشتراكية بمعنى الاشتراك فى المسروقات . .

– كالكثيرين !

وضحك الدكتور الريدى وهو يقول :

– ومع ذلك ، فقد رفض اللصوص الأربعة ، وظنوا أنفسهم – وهم أربعة – يستطيعون أكله – وهو واحد صحيح – وراح يحتال على إقناعهم دون جدوى . . وكان أجمل ما فى أقواله أنه يحاول أن يتفق معهم كأى « جنتلمان » . . هكذا الكلمة منقولة عنه فى الصحف ، كما لابد أنك قرأتها ، واستلفتت نظرك .

– استلفتت نظرى حقيقة ، وضحكت . . .

– ومع ذلك رفضوا ، ظنًّا منهم أنهم سيرهبونه بعددهم ... فما كان منه إلا أن لبس القبضة الحديدية فى أصابعه ، واكتسحهم . . وسمع الجيران ضجة المعركة ، فقبض عليهم جميعاً .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قال الدكتور الريدى بعدها لتلميذته :

– لص خفيف الدم ، بلا أدنى شك . . ولكن ما الذى أثار اهتمامك بهذا الحادث بالذات ، فدعاك لسؤالى إن كنت قد قرأت تفصيلاته ؟

أطرقت عائدة قليلا ، ثم رفعت رأسها ، وواجهت بعينيها الصافيتين

العميقتين عيني أستاذها ، وهي تقول : « إنه . . . هو . . يا دكتور ! »

ولم يفهم الدكتور الريدى شيئاً من هذه الكلمات الثلاث . . « إنه هو يا دكتور » . .

ولم يكد يسألها : « هو من . . يا عائدة ؟ » . . حتى دخل أحد العاملين فى خدمة المكتب ، يحمل قدحى قهوة على صينية من الفضة ، فقدم لعائدة أولاً ، ثم للدكتور . . ثم وضع الصينية وانصرف ، وأغلق الباب .

وعاد الدكتور الريدى يسأل تلميذته باهتمام :

– هو من يا عائدة ؟ . . أفصحى ، أرجوك !

– لص جريمة مدينة المهندسين ، الذى قتل عبد الحميد لطفى . بعد أن حال بينه وبين الاعتداء علىّ ، فى اللحظة الأخيرة .

هب الدكتور الريدى واقفا خلف مكتبه ، وهو يقول بصوت حاول جاهدا ألا يتجاوز باب الغرفة : « لا يمكن ! »

هزت عائدة رأسها تأكيداً ، وهى تقول :

– بل يمكن . . فهو هو . . إنه هو ، ولست بحاجة للتدقيق فى صورته ، أو لإعادة النظر فيها حتى أؤكد أنه هو . . ولم أكن أعرف اسمه حتى اليوم . . لم أكن أعرف أن اسمه عبد الغفار سرور .

وعاد الدكتور الريدى ليجلس على مقعده ، وقد حار فى ما يقول . . وأمسك بالصحيفة ، وراح يدقق النظر فى صورة اللص . .

. الصورة واضحة تماماً . . ولم يكن قد أمعن فيها النظر ، عندما قرأ تفاصيل الجريمة فى الصباح . . وثبت عينيه على الصورة ، ليتأكد مما إذا كان قد رأى صاحبها من قبل . . ولكن عائدة سبقته إلى إعلان ما يريد أن

يتأكد من صحته :

– لقد كان واحداً ممن استعرضتهم منذ شهور ، عندما استدعتني النيابة وحققت معى ، ثم طلبت منى أن أخرج القاتل من بين زملائه . . إذا تعرفت عليه .

وأعاد الدكتور الريدى النظر إلى صورة اللص ، ثم رفع عينيه عنها ، وقال لعائدة : « تذكرته . . نعم ، كان واحداً منهم بكل تأكيد . . »

ثُم بعد لحظة صمت قصيرة ، قصيرة جدًّا ، وكأنه تذكر شيئاً مهمًّا وخطيراً . . ! « ولكن . . ولكنك يا عائدة . . ؟ ! »

– أعرف ما ستقول يا دكتور .

– إنك قلت إنه ليس بينهم .

– لم أكن أستطيع أن أفعل يا دكتور ، فلا قلبي بعينني ، ولا لسانى يطاوعنى ، ولا أصبعى تستطيع أن ترتفع لتشير إليه فأقول هذا هو اللص الذى كان فى غرفة الجريمة ليلة حدوثها . . هذا الرجل يا دكتور – وإن كان لصًّا–وقف بجانبي وقفة أب ، ولا أقل من وقفة أب ، برغم أنه لا يمكن أن يجاوز الثانية أو الثالثة والثلاثين . . لقد أنقذنى – فى اللحظة الأخيرة – من اعتداء وحشى كان سيقع علىّ لا محالة ، فصان عرضى ، وارتكب فى فى سبيل هذا جريمة قتل . . ولم يتخلّ عنى بعد ذلك ليتركني حتى يهرب بجلده . ولكنه قال لى بالحرف الواحد : « إنى أريد أن أؤمن طريقك وسلامتك ، حتى تخرجى من هذا المكان ، ولو كلفنى هذا حياتى . . ومن يدرى ؟ . . ألا يجوز أن تقفى بجانبي يوماً ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أو لك أن نتكهن به الساعة وبذلك تردين لى ما تعتقدين

أنه جميل قدمته ؟ . . كل شيء جائز يا بنتي ، ولا تستبعدى شيئاً ! . . »

« ولم يتركني بعد ذلك ، بل صحبني من الباب الخلفي للفيلا ، وسار بي وسط الخلاء ، فوق أرض وعرة ، ممسكاً بيدى حتى يجنبني عثرات الطريق فى الظلام ، إلى أن وصل بي إلى منطقة النور والعمران . . ومع ذلك لم يتركني ، بل ظل واقفاً بمبعدة مني — تحت شجرة — حتى اطمأن إلى أنني ركبت إحدى السيارات وانطلقت بي . .

« فهل كنت أملك أن أتخلى عنه بعد ذلك ، فأقابل صنيعه بالجحود والنكران ؟ . . ولماذا ؟ لأنه قتل رجلا يستحق القتل حقيقة ، بعد أن أهدر أعراض عشرات السيدات والبنات غدراً ! ! . . قد لا يكون كلامى هذا سليما من الناحية القانونية ، وهذا صحيح أسلم به . . ولكن من يطلب مني أن أدل رجال التحقيق عليه ، بعد كل ما فعل من أجلي ، فإنه يحمل الطبيعة الإنسانية فوق ما تطيق . . إلا مع الأنذال ، ولم تكن النذالة من طبعي يوماً ! »

ورفعت كوب الماء إلى فمها فبللت شفتيها على حافته ، ثم ردته إلى سطح المكتب ، ثم تناولت قدح القهوة الذى أمامها ، فرشفت منه رشفات ، بينما كان الدكتور الريدى يدير كلماتها فى رأسه ، إلى أن ابتسم وهو ينظر لها كما ينظر الأب إلى طفل فى السادسة أو السابعة من أولاده ، أتى تلقائيًّا عملاً كبيراً لا يقدر عليه إلا الرجال . . أشرف الرجال . . فسألته :

— هل كنت أستطيع أن أدلهم عليه يا دكتور بعد كل ما قدم لى ؟

— بالطبع لا .

قالها الدكتور الريدى بلا أى تردد ، فقالت عائدة :

— هو لص . . ولا يمكن أن يفلت من عيون رجال المباحث ، وإن

تأخروا فى الوصول إليه ، فإنهم حتماً سيصلون يوماً ، لا محالة . . ولكن أن يكون هذا الوصول عن طريق ، فهذا ما لن يكون قط !

واتسعت ابتسامة الدكتور الريدى ، وهو يداعب تلميذته بلغة التقاضى :

– طلبات الدفاع ؟

– أن تتفضل مشكوراً بالدفاع عنه !

– وأنا لن أخيب رجاءه فيك . . والقضية – كما يبدو – شيقة ، ومثيرة للمحامى الذى يحب البحث ، ويسعده أن ينجح فى القضايا الصعبة ، التى لا يمكن لأحد أن يتنبأ بالحكم الذى سيصدره القاضى فيها . .الطريق الرحبة المضيئة ، يستطيع . أى إنسان أن يسير فيها . . أما الدهاليز الملتوية المتشعبة ، والدروب الوعرة المعتمة ، فلا يستطيع كل إنسان أن يقتحمها ليصل إلى غايتها . .

– إذن أتقدم ، بعد إذنك ، بطلب للنيابة لمقابلته ؟

– جهزى الطلب ، وسأتقدم به باسمى ، بصفتى وكيلا عن المتهم عبد الغفار سرور .

١٨

عندما استقبلهما عبد الغفار فى زنزانته الخاصة – باعتباره من المجرمين الخطرين – راح يفرك عينيه بكفيه ، كأنه لا يستطيع أن يصدق . . وأطال النظر إلى عايدة وهو يقول لها : « سيادتك ؟ ! »

ابتسمت عائدة فى مودة وعطف ظاهرين ، وهى تقول : « سيادتى يا عبد الغفار » .

– عرفت اسمى ؟

– من الصحف التى نشرت الحادث . كنت أجهله حتى يوم أمس .

– أنا أيضاً عرفت اسمك من الصحف ، منذ شهور .

– وقتها كنت معيدة فى كلية الحقوق . . أما اليوم ، فأنا محامية .

– محامية ؟ !

– كنت لا أزال طالبة فى السنة النهائية ، ليلة الحادث ، ثم تخرجت بعدها بشهور .

نظر لها ، وكأن الذكرى تقيمه وتقعده ، إلى أن قال :

– لن أنسى لك موقفك يوم العرض القانونى . . ألم أقل لك ليلة الجريمة إنك قد تقفين إلى جانبى يوما ، لتردى لى ما تعتقدين أنه دين ، أو جميل قدمته لك ؟

أجابته فى هدوء :

– وها أنا ذى أزورك اليوم ، ومعى أستاذى الدكتور نور الدين الريدى المحامى ، وهو من أكبر محامى البلد – إن لم يكن أكبرهم وشيخهم جميعاً – وقد تطوع ليتولى قضيتك والدفاع عنك .

نظر عبد الغفار إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– يا سعادة الدكتور . . أقسم لك أننى لم أقتله ، أنا صادق . . فأنا رجل . . ولو قتلته لاعترفت بقتله . . إنى مثلا على استعداد لأن أعترف بقتل « المجحوم » – فى ستين داهية – الذى كان سيعتدى على الأستاذة عايدة ،

لأنى قتلته فعلا . . أعترف على الأقل لأنظف ثوبها مما لا يزال عالقاً به من شبهات . . ولكن هذا الصرصور الذى قتل فى حادث السرقة الأخير ، هذا الأسبوع ، لم أقتله ! »

ابتسم الدكتور الربدى وقد هزته شخصية هذا اللص الغريب ، فسأله بلطف :

– مَن الذى قتله إذن يا عبد الغفار ؟ . . صوِّرلى الحادث كما وقع ، لأستطيع أن أحسن الدفاع عنك .

– لقد فوجئت بدخولهم وأنا داخل المسكن . . هم أربعة ، وأنا واحد . . وعندما حاولت الاتفاق معهم ، اتفاق « جنتلمان » ، وتنازلت لهم عن أربعة أخماس العملية – مع أن العرف بيننا يحتّم عليهم الانسحاب ، ماداموا دخلوا المسكن فوجدوا زميلا سبقهم إليه – لم يستجيبوا لى . . واندفع أحدهم يريد أن يطعننى بمطواة قرن الغزال ، ولكنى لا أؤكل سهلا يا سعادة الدكتور . . واستطعت أن أفوّت عليه الطعنة ، وأسرعت بالقبضة الحديدية بين أصابعى ، فكنستهم . .

– ثم ؟

– أحدهم ، وهو كما بدالى رئيسهم ، أمسك بتمثال من النحاس ، قائم على خزانة ملابس منخفضة – ذات أدراج كثيرة – وحاول أن يهوى به فوق رأسى . . ولكنى تفاديت الضربة ، وإذا به يُصيب زميله ، الذى سقط بلا حراك . . ضربة التمثال فلقت رأسه ، فغرق فى دمه . . أنا لا أحب القتل يا سعادة الدكتور . . (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها) صدق الله العظيم ، ولا ألجأ إليه إلا للضرورة ، التى لا أرى معها مفرّاً من

الالتجاء إليه مثل حالة الأستاذة عائدة مثلا . . فقد كنت أدافع عنها وعن نفسي . . كانت معركة حياة أو موت . . وصدقني يا سعادة الدكتور ، وحياة بنتي رشا . . ما قتلت فى حياتى إلا هذا الحلوف « عبد الحميد لطفى » . قتلته مضطراً !

– أصدقك يا عبد الغفار .

– وكان الجيران قد أحسّوا بالمعركة فكسروا الباب وحاصرونا ، وبينهم – من السكان – بعض رجال الشرطة ، من الرتب العالية . . تعرفت عليهم من نظرة . . ولم أشأ للعملية أن تتسع أكثر ، فسلّمت نفسى وأنا واثق بأننى برىء من تهمة القتل ، ولا ينقصنى إلا المحامى « العُقْدةَ » لكى يظهر براءتى من هذه التهمة . .

الابتسامة لا تزال على شفتى الدكتور الريدى ، وهو يسأله :

– والسرقة يا عبد الغفار ؟

ابتسم عبد الغفار ، وهو يقول :

– هذه لا مناقشة فيها . . شروع فى سرقة ثابت ولا مفر منه ، لأننى كنت داخل المسكن فعلا ، أما القتل فلا . . ومع ذلك فنحن لم نسرق شيئا . . إنه شروع فى سرقة لم تتم . .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، سأله بعدها الدكتور الريدى :

– قل لى يا عبد الغفار . .

– خادمك يا دكتور.

– أستغفر الله يا رجل

– خادمك والله العظيم . . وخادم الأستاذة عائدة لآخر قطرة من

دمى ، كما قلت لها ليلة الجريمة . .

— حسن جداً . . ولكن هل أنت جادّ حقيقة ، فيما أعلنته الآن ؟

— بخصوص ماذا ؟

— إنك على استعداد لأن تعترف بقتل عبد الحميد لطفى ، لتنظف ثوب الأستاذه عائده كما قلت . .

— رقبتى يا دكتور .

— بجدّ ؟

— الرجل بكلمته يا دكتور . . وحتما سيصلون إلىّ يوماً ، فلم لا يكون هذا اليوم ، اليوم قبل الغد . . على الأقل ، إذا سلّمت نفسى بنفسى ، واعترفت ، ربما كان هذا من دواعي تخفيف العقوبة ، مع مرافعة سعادتك .

— يعنى مستعد لأن تقدّم طلباً للنيابة الآن ، تقول فيه إن عندك أقوالا تريد أن تدلى بها فى جريمة مدينة المهندسين . .

— على أتم استعداد . والآن ، إذا شئت سعادتك .

ونظر الدكتور الريدى نظرة طويلة لهذه الشخصية الفريدة كما راحت عائدة تتأمله من جديد . . ولم تستطع أن تمنع طبقة رقيقة من الدموع من أن تلمع فى عينيها ، لحظها عبد الغفار ، فقال لها :

— رقبتى يا ست هانم فداء دمعة من هذه الدموع . . ولا يهمك . أنا رجل وأعجبك والله العظيم ، والرجل يُربط من لسانه .

ثم التفت إلى الدكتور الريدى ، وقال له :

— اتخذ إجراءاتك يا سعادة الدكتور ، وأنا جاهز . . وكله باق لابنتى « رشا » وأمها . . وأنا لا أريد أن أظل مطارداً بتهمة قتل إلى نهاية عمرى .

لم يضيع الدكتور الريدى دقيقة من وقته ، فأسرع باتخاذ كافة الإجراءات الواجب اتخاذها، بوصفه وكيلاً عن المتهم عبد الغفار سرور.

وعندما بدئ التحقيق معه ، وقف إلى جانبه بهذه الصفة ، ليتابع إجاباته عن أسئلة المحقق كلمة بكلمة ، حتى لا يزل لسانه . .

ولما انتهت جلسة التحقيق ، قال الدكتور الريدى للمحقق ، إن المتهم يريد أن يعترف بجريمة ارتكبها منذ نحو عامين أو أكثر قليلا ، وحُفظ التحقيق فيها لعدم العثور على الفاعل . والجريمة التى يريد المتهم أن يعترف بارتكابها ، اشتهرت باسم جريمة مدينة المهندسين ، والمجنى عليه فيها الثرى « عبد الحميد لطفى »

وفتح النائب المحقق تحقيقاً جديداً . .

* * *

ومن جديد دارت مطابع الصحف ، لتظهر صباح اليوم التالى حاملة أكثر العناوين إثارة وتشويقًا للقراءة .

* القاتل الحقيقى فى جريمة مدينة المهندسين ، يعترف بجريمته بعد أكثر من سنتين .

* اعترافات مذهلة يمليها القاتل فى جلسة التحقيق .

* المجنى عليه كان يأتى أعمالاً يندى لها جبين الأخلاق ، بعد أن يخدر ضحاياه ، وكاد يفتك بإحدى طالبات كلية الحقوق ، لولا أن تقدم اللص فأنقذها .

* القاتل يقول : أنا لص ، ولكنى أشرف منه ألف مرة ، ولو لم أقتله لقتله غيرى .

* غاظني منه أنه يحمل مصحفاً صغيراً فى علبة من الذهب ، بينما يرتكب أخس الأفعال بلا وازع من ضمير .

* إنى أعترف بارتكاب هذه الجريمة ، لأغسل وأنظف ثوب سيدة كريمة فضلى ، من شوائب قد تكون عالقة به . .

وعشرات الصور تغطى صحف الصباح اليومية الثلاث . . عبد الغفار يتكلم ، أو يشير بيديه ، أو ترتسم على وجهه الانفعالات المختلفة من هدوء أو ثورة . . من رضى أو غضب . . من تأن أو اندفاع .

ولكنه لم يبتسم أبدا . . لم تُلتقط له صورة واحدة وهو يبتسم ، وكأنما البسمة لم تطف بشفتيه منذ ولدته أمه وحتى هذه اللحظات ، التى بدأ يحس معها أنه يواجه مصيره المحتوم . .

ولم يفت كل صحيفة – وهى تفرد صفحة كاملة لاعترافات اللص المثيرة – أن تنشر صورة للمجنى عليه عبد الحميد لطفى . . ثم صورة عريضة من صور عائدة ، تم اختيارها بعناية شديدة ، فكانت تبدو فى كل من هذه الصور – فى مختلف الصحف الثلاث – كما لو كانت أميرة تنظر إلى متاهات أفق عريض ، بعيد ، مجهول ، تحاول أن تستشف فى كلماته ما يترصدها به من أحداث ، قد تهبط بها عن عرش إمارتها إلى القاع

الصور كانت قد التقطت لها ليلة أن استدعتها النيابة للتحقيق معها ، ثم أفرجت عنها بضمان والدها . . لتعود فى اليوم التالى لكى تجرى النيابة أمامها عرضا حيا لمجموعة من أخطر لصوص القاهرة ، لتخرج من بينهم القاتل ، إذا كان بينهم .

والتمس الدكتور الريدى نظر القضيتين فى جلسة واحدة ، فأجيب التماسه . وحددت الجلسة ، التى غصت بأعداد من مختلف الطبقات . من جموع الناس ، لم يكن لقاعة المحكمة أى عهد بها من قبل .

وكانت « توحة » ضمن الحاضرين . . وكان الدكتور محمود . . والد عائدة ، ضمن الحاضرين أيضاً .

حضرت « توحة » — زوجة عبد الغفار فى ثوب بسيط نظيف . وكانت ابنتها « رشا » تمسك بيدها ، لا تدرى معنى لما يجرى حولها . . إنها الآن فى الخامسة من عمرها . . كل ما تدريه أنها شاهدت أباها خلف قضبان من الحديد ، وأنه عندما أراد أن يقبلها ، ركع على ركبتيه ، وقبلها من بين هذه القضبان ، وهى لا تدرى لماذا .

وحضر الدكتور محمود . . والد عائدة — ليرى هذا اللص الذى دافع عن ابنته دفاع المستميت ، وحال دون وحش بشرى من أن يعتدى عليها أبشع اعتداء ، وارتكب فى سبيل ذلك جريمة قتل . . حضر الدكتور محمود ليرى هذا اللص ، ليصافحه ، وليقدم له تحية شكر وعرفان ، ولينحنى أمام إنسانيته . . إنه لص ، هذا صحيح . . ولكنه فى نظر والد الفتاة التى صان عرضها إنسان تربع قمة الإنسانية . .

ترافع الدكتور الريدى عن موكله — المتهم عبد الغفار سرور — فى القضيتين : قضية السرقة التى وُجهت إليه معها تهمة قتل أحد اللصوص ، ثم قضية مقتل الثرى عبد الحميد لطفى .

ورفعت الجلسة للمداولة ، ثم انعقدت بعد ثلاث ساعات ، للنطق بالأحكام . . وكان نصيب عبد الغفار منها :

البراءة من تهمة قتل اللص . . والسجن لمدة سنة عن تهمة الشروع في السرقة . . ثم السجن مع الأشغال الشاقة – لمدة خمس عشرة سنة – لقتله الثرى عبد الحميد لطفى

* * *

ورفعت الجلسة . .وبارح الجميع القاعة ، ما عدا خمسة : الدكتور الريدى ، وعائدة ، ووالدها ، وتوحه . . ثم رشا .

واقتربوا من القفص . .

وكان عبد الغفار البادئ بالكلام . . نظر إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– سعادة الدكتور . . لا أعرف كيف أشكرك . . لقد كنت أنتظر السجن المؤبد فى كل من القضيتين ، فإذا بك – بحول الله – تختصر الخمسين سنة إلى ست عشرة . . وإذا هدانى الله فى السجن – وسيهدينى بإذنه – ستصبح الست عشرة سنة اثنتى عشرة فقط .

ابتسم الدكتور الريدى ، وهو يقول : « يا عبد الغفار . . » .

– خادمك يا سعادة الدكتور .

– برغم حياتك التى اختارتها الظروف لك ، فإنى أراك شديد الإيمان بالله .

– ونِعْم بالله .

– فإذا ظللت متمسكاً بإيمانك هذا ، فثق بأن الله سيكرمك فى مقبل أيامك .

– أنا أسلمت أمرى لله ، الذى أمدّنى بقوة من عنده لكى أعترف بجريمة مدينة المهندسين ، حتى تتخلص الأستاذة عائدة نهائيًا من القلق

الذى لازمها أكثر من عامين ، ولأتخلص أنا أيضاً من مطاردة لا مفر من مواجهة نهايتها يوماً ما . .

أجابته عائدة ، فى ابتسامتها الوديعة :

– شكراً يا عبد الغفار . . شكراً من كل قلبى .

ولمحت دمعة تبرق فى عينيه ، فاتسعت ابتسامتها فى وجهه أكثر ، وهى تقول عاتبة : « وبعد يا عبد الغفار . . اهكذا تضعف ؟ »

واسرع فالتقط الطبقة اللامعة من مقلتيه ، قبل أن تنساب دموعاً على خديه ، وهو يقول :

– أنا لايهمنى شخصى ، ولا تهمنى نفسى يا ست هانم ، ولكن . . ولكن . . :

واختنق صوته ، فخاف أن تخونه دموعه ، فأمسك . . وأشار إلى زوجته وإلى طفلته . . وأدركت عائدة ما كان يريد أن يقول . .

والدها أيضاً أدرك ما أدركته ابنته ، فتدخل فى الحديث قائلا : « يا عبد الغفار . . » .

واسرعت عائدة تقول :

– هذا والدى يا عبد الغفار . . الدكتور محمود فهمى . .

– أهلا يا سعادة الدكتور . . ربنا يحفظك لها ، ويحميها لك !

– لقد حضرت اليوم خصيصاً لاراك ، لأصافحك ، لأحييك . . لأشكرك من كل قلبى ، فإنك عرضت حياتك للهلاك من أجل ابنتى الوحيدة ، وارتكبت جريمة قتل – كنت فى غنى عن ارتكابها – لتنقذ عرضها من هوان الاغتصاب . . يا أخ عبد الغفار ، هذه يدى أصافحك . .

ومد عبد الغفار يده من داخل القضبان ، ليصافح اليد الممدودة له من خارجها . وهو يقول :

– أنالم أفعل إلا ما يفعله أى رجل شريف . .

– أما عن ورشا ، فإنهما ستخرجان من هذه القاعة إلى بيتى رأساً لتقيما معى ومع ابنتي ووالدتها ، ولن تتركا البيت بعد ذلك أبدا .

– ربنا يكرمك يا سعادة الدكتور .

وابتسم الدكتور ، وهو ينظر إلى الطفلة الجميلة ويسأل :

– رشا عمرها الآن . . ؟

– خمسة أعوام تقريباً .

– سألحقها بالمدرسة من مطلع الموسم الدراسى القادم .

وهتفت توحة ، فى صوت تشيع الفرحة فى نبراته : « مدرسة ؟ ؟ »

– وعند ما يخرج عبد الغفار من السجن – بعد اثنى عشرة سنة بإذن الله – سيحتفل معنا بنجاحها فى الثانوية العامة . . وسألحقها بكلية الطب يا توحة ، لنراها جميعاً بعد ستة أعوام طبيبة ، فلا يناديك أحد إلا بقوله يا أم الدكتورة !

وبكى عبد الغفار . . بكى وهمّ بخطف يد الدكتور محمود ليقبلها ، ولكن هذا سحبها منه بلطف ، وهو يقول :

– أستغفر الله يا عبد الغفار .

– ربنا يعمر بيتك يا سعادة الدكتور ، ويحفظ لك الأستاذة عايدة والست الهانم الكبيرة والدتها . . ربنا يسترك ، ويخلف عليك ، ولا يريك ضيما قط !

والتقطت عائدة طرف الحديث من والدها ، فقالت لعبد الغفار :

– وبعد ، فإنك ستراناـ توحة ورشا وأنا – فى كل موعد زيارة ، وكأنك لم تفترق عنهما . . ستزورك كل أسبوع . . وسترى أننى سأكون عند وعدى .

ثم لحظة صمت ، أضافت بعدها :

– ومن يدرى يا عبد الغفار . . فالمناسبات كثيرة ، حيث يعلن الإفراج عمن أمضى نصف المدة المحكوم عليه بها ، إذا كان حسن السلوك خلالها .

– يارب ياست هانم . . يارب !

واختم الدكتور محمود الحديث بقوله :

– بقيت نقطة مهمة وأخيرة يا عبد الغفار . . إنك يوم تخرج من السجن ، ستجد عملا شريفا ينتظرك ، تبدأ ممارسته فى نفس اليوم . . يوم خروجك . و . . ونتركك الآن بخير وفى أمان الله !

وابتسم عبد الغفار . . ابتسم ابتسامة رضى واقتناع وقناعة ، وهو يقول للدكتور محمود :

– أرحتنى يا سعادة الدكتور . . طمأنت قلبى يا أستاذة عائدة . . مادامت توحة ورشا ستكونان فى رعايتكم بعد الله .

ثم نظر للدكتور الريدى وهو يقول :

– اما سعادتك يا سعادة الدكتور ، فاعفنى إذا عجزت الكلمات عن الوفاء بالتعبير عن شكرى لسعادتك .

ونظر للجميع وهو يقول : « مع السلامه . . مع السلامة يا توجه . . مع السلامة يا رشا . . مع السلامة كلكم ! »

وانصرفوا . .

وبقى هو فى القفص مع بقية المحكوم عليهم ، ينتظرون جميعاً من سيقودونهم إلى السيارة التى تحملهم إلى السجن . .

١٩

الشهر نوفمبر . . أخذ الأيام العشرة الأولى من نوفمبر . . بعد محاكمة عبد الغفار وصدور الحكم عليه بنحو أربعة أشهر . .

عائدة جالسة فى مكتبها ، والساعة حول معصمها تشير إلى منتصف الثامنة مساء .

أستاذها الدكتور الريدى يمر بها – بغرفة مكتبها – كعادته ، ليسألها سؤاله التقليدى ، إذا كان سينصرف قبلها : إن كانت بحاجة لأى شىء ، فتشكر له عنايته واهتمامه ، فيحييها وينصرف ، وهى تقول له :

– إنى أنتظر سيارتى ، لأن ناقل السرعة[1] بحاجة لإصلاح ، وقد وعدنى الحاج إدريس بأن يحضرها لى بنفسه ، بعد أن يتم إصلاحه ، ووعدنى بأنه سيكون هنا قبل الثامنة . . ولهذا فأنا مضطرة لانتظاره .

ومرت دقائق . . عشر دقائق . . خمس عشرة دقيقة . .

وسمعت طرقاً على باب غرفتها ، فأذنت للطارق بالدخول . .

---

(١) ناقل السرعة هو « التفليتيس » فى السيارة – « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور.

كان أحد العاملين بالمكتب . . عم رضوان .

– أهلاً يا عم رضوان !

– أهلاً بسيادتك يا أستاذة عائدة . . هناك من يريد مقابلتك

– ألم يخبرك من يكون ؟

– اسمه زكى الرفاعى . . الأستاذ زكى الرفاعى .

* * *

ومرت لحظة صمت قصيرة ، أحست عائدة خلالها بأنها ترتفع ، وترتفع ، وترتفع ، حتى أصبحت تراه صغيراً ، صغيراً ، صغيراً . . وكلما أحست بارتفاعها أكثر ، ازداد صغراً وضآلة أكثر . . ثم نظرت إلى عم رضوان ، وقالت له فى هدوء وابتسامة على شفتيها :

– فليتفضل ياعم رضوان !

ووقفت خلف مكتبها قبل أن يدخل زوجها السابق ، فلما دخل صافحته بأدبها العالى ، والابتسامة ما زالت فوق شفتيها ، وقالت له :

– تفضل يا أستاذ زكى . . تفضل بالجلوس !

وجلست ، فجلس . .

– قهوة ، أو شراب من الثلاجة ؟

– شكراً .

– أهلا وسهلاً .

لم تسأله سبب الزيارة ، لأنها أرادت أن تترك له اختيار مدخل الحديث ، فقد كانت تعرف كل ما سيقوله . . قبل أن يقوله .

هو الذى فى زيارتها فيجب أن يبدأ – هو – حديثه .

سألها السؤالين الساذجين :

– كيف صحة الوالد ؟

– بخير .

– والوالدة ؟

– الحمد لله .

وعاد الصمت يعقد لسانه ، إلى أن وجد الكلمات ، فقال :

– فى الحقيقة يا أستاذة عائدة . . إننى جئت لك اليوم ، لأرجو منك أن يعود كل منا للآخر ، وأن نستأنف حياتنا معاً من جديد .

واجهته فى شجاعة ، ودون أن تهرب الابتسامة من قسمات وجهها ، وقالت له فى أدب شديد :

– أستاذ زكى . . إننى آسفة أشد الأسف ، لأنك تسألنى ما لا أستطيع تحقيقه لك .

– ولِمَ ؟

– لم يعد أحدنا يصلح للآخر .

– إننا تعاشرنا شهوراً ، زوجين سعيدين . . فلم لا يصلح أحدنا للآخر ؟

– لأنك طلقتنى .

– كنتُ متسرعاً .

– هذا غير صحيح .

– غير صحيح ؟ !

– لو أنك كنت متسرعاً كما تقول ، لطلقتنى فى غرفة التحقيق ،

بعد أن سمعت ما ساءك من تفاصيل قصتى . . أو كنت خرجت من غرفة التحقيق إلى أقرب مأذون من مأذونى الشرع ، أو إلى أقرب قسم من أقسام الشرطة ، لتطلقنى هناك كما فعلت . . فى مثل هذه الحال أستطيع أن ألتمس لك عذراً ، فأقول إنه فعلها فى لحظة انفعال وتسرع . . أما أن تنتظر أسبوعين ، ثم أتلقى وثيقة طلاقى ، يسلمنى إياها أحد رجال الشرطة ، فمعنى هذا أنك لم تتسرع . . بل إنك فكرت تفكيراً طويلاً ، متأنياً ، اقتنعت بعده بأنك لا تصلح لى ، أو أننى لا أصلح لك . . وفى هذه الحال ، لا أرى – بكل أسف – أى مبرر أو ضرورة لأن نستأنف حياتنا معاً من جديد .

وأحس زكي بأنه يتضاءل أمامها . . كان منطقها صحيحاً ، وعادلاً ، ومنصفاً . . وقبل أن يحاول رد حجتها بضدها ، استأنفت هى حديثها فقالت :

– إنك اعتقدت ، أو شككت ، مجرد شك – ولو للحظة واحدة ، ولا أقول لأكثر من عامين ، منذ ليلة التحقيق معى – أننى فتاة سهلة ، يمكن أن تعبث ، وأن يصل عبثها إلى درجة التفريط . . وأنت لم تفكر فى زيارتى لتعرض على أن أعود إليك ، أو تعود إلىّ ، إلا بعد أن ضرب اللص عبد الغفار سرور مثل الرجولة ، فبلغ بمروءته وشجاعته ذرى الإنسانية وقممها . .

« رجل حر طليق . . يجرى ، ويمرح ، ويسرق ، وينفق ، ويعبد زوجته وطفلته الواحدة . . وقضيته ميؤوس تماماً من العثور على الجانى فيها ، ومع ذلك لم يتردد ، عندما التقى بى ، فى أن يعترف بأنه هو هذا الجانى الميؤوس من الوصول إليه . . ليضحى بحريته . . ليسجن اثنتى عشرة سنة ، إذا افترضنا الإفراج عنه بعد انقضاء ثلاثة أرباع المدة المحكوم

بها عليه . . من أجل ماذا ؟

« من أجل أن ينظف ثوب سيدة « كريمة فضلى » – كما وصفنى – مما قد يكون عالقاً به من شوائب . . فهل تظننى مستطيعة أن أعود إليك ، بعد كل هذا ؟

« إنك لم تشرفنى بهذه الزيارة ، إلا بعد أن اعترف عبد الغفار بكل شىء، فصدقته . . أما أنا فإنك لم تصدقنى ، كنت أتمنى أن تفعل . . أن تقف إلى جانبى كما وقف أبى وأستاذى الدكتور الريدى . . بل وكما وقف لص لا تربطه بى أية صلة . . كنت أتمنى أن تدافع عنى ، أن تحمينى ، أن تعلن على الجميع أن زوجتك ضحية ، وأنها مجنى عليها وليست جانية . . ولكنك لم تفعل . . كل ما فعلته أنك طلقتنى فى قسم الشرطة دون أن تقدر أننى عشت هذه الشهور الطويلة أتعذب . . أتمزق . . أتفتت . . كنت كمن تمشى عارية – أو فى القليل – حافية على الشوك .

ومرت لحظة صمت هائلة ، أحس زكى الرفاعى خلالها بأنه لم يعد ينتمى إلى هذا العالم . . لقد سلقته عائدة فى حوض ماء مغلى ، كما تُسلق الدجاجة بريشها ، تهيئه لتعريتها من هذا الريش . . فقد أحس زكى بأن عائدة قد عرته تماماً ،

وعادت تقول ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة :

– أنا آسفة يا أستاذ زكى . . لم يكن فى نيتى أن أُسمعك كل ما أسمعتك ، عندما أخبرنى عم رضوان أنك تطلب مقابلتى ، ولكن . . لا أدرى ماذا جرى لى . . فأرجو منك أن تقبل اعتذارى .

رفع زكى إليها عينين ذابلتين متعبتين ، كما لو أنه لم ينم منذ طلقها

وحتى هذه اللحظة . . وهمس فى ضعف :

– يعنى . . لا أمل ؟ ؟

– أنا آسفة يا أستاذ زكى . . لم يعد كل منا يصلح للآخر . . طريقك غير طريقى ، كما أن طريقى غير طريقك .

ووقف زكى فوقفت . . ومد يده يصافحها فصافحته بأدبها العالى المألوف . . ومشت معه إلى باب حجرة مكتبها ، وهى تقول له : « مع السلامة ! » .

وعادت إلى مكتبها . . ونظرت إلى الساعة حول معصمها ، وهى تقول لنفسها :

– تأخر الحاج إدريس . . وأريد أن أعود إلى البيت .

ولم تكد تنتهى عبارتها ، حتى أز جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالحاج إدريس يقول لها إن سيارتها لن يتم إصلاحها الليلة ، فهناك قطعة لا مفر من إبدالها بجديدة ، ولن يتيسر له هذا إلا صباح اليوم التالى .

وبارحت مكتبها ، وألقت إلى عم رضوان ووكيل الدكتور الريدى والضارب على الآلة الكاتبة بتحية المساء ، وهبطت فى المصعد ، ومنه إلى الطريق . . إلى شارع قصر النيل .

ووقفت تنتظر سيارة تحملها إلى البيت . .

السيارات تمضى تحمل الراكبين ، أو خالية ، ولكن سائقيها لا يقفون لمن يشير إليهم بالتوقف .

ومرت سيارة . . سيارتان . . ثلاث سيارات . . أربع . . خمس . . عشر . . وهى واقفة فى مكانها ، أمام باب المبنى الذى يضم مكتبها . . مكتب

أستاذها الدكتور الريدى .

وانقضى ثلث ساعة . .

فجأة ، وقفت أمامها سيارة فاخرة ، فتح سائقها بابها ، وهو يقول فى أدب مفرط :

– الآنسة ، لوسمحت لى بحملها إلى حيث تريد ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً تمنحنى إياه . .

وابتسمت . . المصيبة أنه لا يدرى لماذا ابتسمت ! . .

مصيبة أكبر . . أنه فسر ابتسامتها بأنها تشجعه . . بأن صاحبة هذه الابتسامة ممن ينتظرنه ، أو ينتظرن غيره ، أوغيره ، أوغيره . فأضاف :

– إن العثور على تاكسى فى مثل هذه الساعة ، وفى هذا الشارع بالذات ، يعتبر من المستحيلات . . فتفضلى . . سأحملك إلى حيث تريدين . . ولو قلت إلى الإسكندرية !

أحنت رأسها وهى تقول له : « شكراً » .

– سيدتى . . يعزّ علىّ وقوفك فى مثل هذه الساعة ، وقد أقبل الليل .

– شكراً مرة أخرى .

وعاد يلح : « ولكن . . . »

قاطعته وهى تقول فى حزم يفرض شخصيتها فرضاً :

– أرجوك ، لا تلحّ وانصرف لحالك بسلام . . وإلا . .

واكتشف أنها ليست ممن ينتظرنه أو ينتظرن غيره ، فابتعد بسيارته ، وهو يسأل نفسه :

– هذا غزيب . . غريب جدًّا . . فيمَ اذن كانت ابتسامتها المشجعة ،

لحظة أن وقفت ودعوتها للركوب ؟ !

وانطلق بسيارته متجهاً إلى ميدان التحرير . .

ومرت إحدى السيارات . وكانت خالية . ولكن سائقها لم يتوقف لها عندما أشارت له . .

بعدها مباشرة ، رأت سيارة مقبلة . فأشارت لسائقها . فوقف لها ، وتقدمت ، وفتحت الباب ، وركبت . . ولم يفتها أن تلتقط رقم السيارة المكتوب على بابها ، لتحفظه فى ذاكرتها . . وابتسمت وهى تقول فى همس :

– الله يمسيك بالخير يا عبد الغفار ويفك عنك !

فقد تذكرت نصيحته لها ليلة الجريمة .

ونكس السائق راية العداد وهى تقول له :

– جاردن سيتى من فضلك !

وابتعدت بها السيارة .

تمت

الخميس ١٩ يونيه ١٩٧٥ – الأحد ٢٤ أغسطس ١٩٧٥

رقم الإيداع	١٩٨٢/٣٤٢٦
الترقيم الدولى	٩٧٧–٠٢–٠١٠٠–٦ ISBN

١/٨٢/١٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

ـه

٥٠